الفصل العاشر

وادي مدين

تُعد صخرة المفرق، التي انطلقنا منها في وادي الأبيض يوم ١٢ فبراير ١٩٥١، المحور، كما يفترض أن تكون، للطبوغرافيا والجيولوجيا المحلية. فمنها استطعنا أن نرى كتلاً أو أجزاءً من جميع مكونات العناصر الجيولوجية في المنطقة كالجرانيت القاعدي وطبقات الرايوليت الداخلية وطبقات الإندست التالية لهما ثم الصخور الرملية النوبية الأكثر حداثة.

ومن ناحية جغرافية فهي نقطة الالتقاء لخطي التصريف الرئيسين من غرب حسمى وشرق مدين على التوالي. وهما، وادي الصحب الذي تقع رأسه على بُعد حوالي عشرة أميال في اتجاه أعلى التيار على طول الطريق الذي أتينا منه، ووادي الأبيض الذي ينطلق من على بُعد عشرين ميلاً تقريباً إلى الجنوب تحت الحافة الحادة لجبل مدين. وفي هذا الملتقى، وفي مساحة قدرها سبعة أميال باتجاه مجرى التيار تصب فيه المياه المنحدرة من مجموعة الجبال المجاورة له، جبال الحُصُب والجحاشي على الضفة اليسرى حتى الثنية،

وهضب البير والنخيلة وأم هاشم على اليمين، وبعد مسافة قليلة من الثنية الغربية في القناة الرئيسة، يلتقي الوادي بآخرين مهمين هما زيتة والقَحْزا المنحدرين من الشرق والشمال على التوالي، ويصرّفان أيضاً مياه منطقة تشبه حسمى في خصائصها وتشكل في الواقع امتدادها الشمالي نحو الحدود مع الأردن.

وعلى مسافة ثلاثة أميال أسفل التقاء واديي زيتة مع الأبيض، وعشرة أميال من المفرق، يترك درب السيارات قاع الوادي ليصعد في رافد قصير ولكنه واسع يسمى شعيب ضال الذي يهبط بين كتلة جبل الجحاشي وجبل قريّة المنخفض (ربما قريعة) على الضفة اليسرى لوادي الأبيض.

بعد مسافة قليلة أسفل هذه النقطة يبرز تل كشو الواضح باللونين الأحمر والأسود (الرايوليت والإندست) على الضفة اليمنى ليكون علامة لبداية امتداد حوض قيل إنه من الصعب على العربات عبوره بسبب الخواص الصخرية. وتناثر الصخور الجلمودية في القناة من هناك حتى نقطة ثنيته الكبرى والنهائية نحو الجنوب، حيث يلتقي درب السيارات به هناك مرة أخرى. وفي غضون ذلك حاولنا المسير على طريق "ضال الوعر" نسبياً الذي يقع في فسحة كبيرة بين جبال الجحاشي والرس وقريّة، وتدريجياً غيّرنا اتجاهنا قليلاً من الغرب للشمال لنتسلق المنحدر السهل لشعيب المعطية حتى رأسه على

مسافة أربعة أو خمسة أميال صعوداً من النقطة التي تركنا عندها وادي الأبيض.

وعند مفترق الطرق، الذي يمتد منه وادي صُرَيْم الواسع باتجاه الغرب بين جبال منخفضة من البازلت، توقفنا لنحدد موقعنا؛ كانت هذه البقعة مميزة بعدد من الأكوام الحجرية التي ربما كانت نصباً تذكارية أو قبوراً أو متاريس مرتجلة من عمل البدو للدفاع عن الممر. وقد لاحظت قرب فوهة شعيب ضال بعض البقايا المتناثرة لمبانٍ بدائية، التي ربما كانت سداً أو بيوتاً بسيطة، وكان هناك شيء ما في مسمى هذه المنطقة جعلني أمعن التفكير فيه.

فاسم قريّة نفسه يوحي تقليدياً بوجود موقع للخرائب الأثرية، وهذا ما يؤكده بصورة جزئية الوجود الحقيقي لبعض الآثار، مهما كانت ضئيلة، ولكن اقتراب جبل الرّس منا لا يبدو أنه شيء عرضي بالكامل. ففي القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (١) ويقول أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (٢). وفي حدود ما أعلم لم يتمكن أحد حتى الآن من تحديد الرس والأيكة

(١) الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ من سورة ق.
(٢) الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ من سورة ص.

(تترجم أحياناً بكلمة الغابة)، على الرغم من أنه يبدو أن هناك افتراضاً عاماً بأنهما لا بد أن يكونا في المنطقة المجاورة لمدين.

وقد يكون من المبالغة أن أزعم أنني بذلك قد وقعت على آثار الرس والأيكة المذكورتين آنفاً، بيد أنني لا أعلم أي رس أخرى في الجزيرة العربية تكون هي المقصودة باستثناء تلك التي في القصيم، ومن المستبعد أن تكون الإشارة إليها في مثل ذلك السياق. وكما سنرى فيما بعد، يبدو أن اسم "الأيكة" لا يزال باقياً في أحد الوهاد المنحدرة إلى وادي عفال من جبل اللوز العظيم.

وليس هناك شيء من المبالغة في افتراض أن النقاط الاستراتيجية الكثيرة على طول النهر المؤدية إلى مراكزها الرئيسة على مسافة بعيدة إلى الجنوب كان يسكنها المدينيون القدماء (ومن جاء بعدهم، ومنهم الأنباط) وربما من سوء الحظ أن انحراف طريق السيارات عن قاع الوادي وابتعاده عنه قد حرمني من زيارة ضريح الولي سموأل الذي ما زال يقدّره البدو، ويقال إنه يقوم على جرف عالٍ مطل على الضفة اليمنى لوادي الأبيض في نقطة يلتقي عندها الوادي مع رافد من الشمال - الغربي هو شعيب الوسيطة ويحتمل أن يكون مزاراً يعود لما قبل الإسلام، وقد وضعه موسل على خريطته، بالرغم من أنه لم يزر هذا المكان، وفي حدود علمي لم يزر هذا المكان أي أوروبي من قبل. من موقعنا عند رأس وادي صريم كنا نستطيع أن

نرى سلسلة الجبال العالية التي تصطف على الضفة اليمنى للوادي، بيد أن عودة لم يتمكن من تمييز أو تعريف قممها، وكان علينا أن ننتظر حتى نجد دليلاً جديداً، وعندها استطعت أن أشبع فضولي وحبي للمعرفة، وكان هناك هضبة مدوّرة معزولة عند الطرف الجنوبي تدعى شعل وبعدها قمتا الثمائل نحو الشمال، وكذلك قمتا القصير بينهما وبين جبل الشُريّف ذي الرأسين على مسافة أبعد نحو الشمال، وبعد فجوة وادي الشرف كان خط الجبال يواصل سيره بجبل حُميّر المنخفض، ويغطي ثنية وادي الأبيض، الذي يأخذ الآن اسم عفال.

وكان وادي صريم من رأسه حتى التقائه بوادي عفال يهبط بانحدار شديد بمقدار ١٣٠٠ قدم تقريباً في مسافة اثني عشر ميلاً حيث كان ارتفاعنا في المخيم عند ملتقى الواديين حوالي ٢٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وبعد ميل أو اثنين نزولاً على منحدر من الرمل الجرانيتي الخشن المكسو بكثافة نسبية بشجيرات الرتم لاحظت مجموعة صغيرة من خيام الرعاة على يميننا، وأوقفت الشاحنة وأرسلت إليهم زعلاً وعودة بحثاً عن دليل، وقد رجعا خاليي الوفاض وتوقفنا مرة أخرى بعد حوالي عدة أميال أخرى لنبحث عن دليل في مخيم آخر تحت جبل الرّقة على الجهة اليسرى، مقابل جبل الغراب على الجهة الأخرى. وهنا كنا أوفر حظاً حيث أحرزنا

نجاحاً، وفي أثناء انتظار عودة زعل إلينا، جاءنا غلام صغير من المخيم ليتبادل معنا حديثاً ودياً في غير تكلف، وأخبرنا بعضاً من أسماء المعالم الأرضية الرئيسة الظاهرة.

كان دليلنا الجديد يدعى زيداً من فخذ النشارى من بني عطية، وقال لي إن مصطلح المعزّة والذي استخدمه أحياناً ريتشارد بيرتون وموسل كثيراً في الإشارة إلى بني عطية، قد سقط الآن بالكامل ولم يعد يستخدم تماماً تقريباً، على الرغم من أنه كان مشهوراً كاسم عام يشمل القبيلة كلها. وفي أسفل هذه النقطة مباشرة، وبعد حوالي ستة أميال من الرأس تدخل قناة شمرخ المنحدرة من الكتف الشمالي لجبل اللوز، في وادي صنيم، بينما تمتد جبال شمرخ كل الامتداد من جبل الرُقة على طول الضفة اليسرى.

وبعد ذلك سرعان ما ينبسط الوادي في دلتا واسعة بين تلال منخفضة غريبة نسبياً عندما يصلُ قناة عفال بواجهة واسعة، هنا نصبنا خيامنا في أيكة صغيرة متناثرة من أشجار السنط كاملة النمو، غير بعيدة من مخيم صغير لرعاة من قبيلة عمران التي يبدو كأنها مستقلة عن بني عطية ولكنها مرتبطة بها، وجاء عدد من رجالها ليذوقوا عشاءنا، وعادوا في الصباح لتناول القهوة والفطور معنا قبل أن نستأنف سيرنا، ولم يكن لديهم إلا معرفة ضئيلة عن منطقتهم على الرغم من أن اسم القبيلة يذكرنا بأسرة آل عمران التي كانت في

سلسلة الأنبياء من آدم إلى نوح وإبراهيم. وجاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] ويحتمل أن تكون هذه القبيلة من القبائل ذات المكانة الدنيا، مثل هتيم والشرارات التي يكثر وجودها في شمال - غرب الجزيرة العربية، بالرغم من أنها قد تكون منحدرة من أصول قديمة مثل بني عقبة من مقنا، ولم نكد نقضي في المخيم فترة طويلة إلا وبدأت عاصفة شديدة تتجمع وتتكون بين الجبال الشاهقة التي تلقي بظلالها علينا، وبحلول المغرب كانت المنطقة كلها تلتف بالغيوم، وبعد ذلك بساعات قليلة هطلت علينا أمطار شديدة وغزيرة، وفي منتصف الليل كانت السماء قد عادت لصفائها تماماً مرة أخرى. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٤١ درجة فهرنهايت.

ولم نستأنف رحلتنا إلا قرب منتصف نهار ١٣ فبراير، لأن رفاقي كانوا في سعادة تامة مع ضيوفهم من قبيلة عمران وأفراد الشاحنتين القادمتين من تبوك في طريقهما إلى ضباء، والذين جلبوا معهم آخر الأخبار من عاصمة المناطق الشمالية التي عاد إليها خالد السديري فور مغادرتنا. وفي غضون ذلك، فقد استفدت من توقفنا الطويل

(١) الآيتان ٣٣ و ٣٤ من سورة آل عمران.

في استكشاف المنطقة من قمة تل صغير رائع بارتفاع ١٠٠٠ قدم من صخور الرايوليت والإندست على نفس حافة قناة عفال. لقد كان صباحاً جميلاً مشرقا يلفه نسيم بارد نسبياً يهب من الشمال. كانت القمة الرئيسة في جبل اللوز المختفية جزئياً في السُحُب، ترتفع إلى الجنوب - الشرقي من موقعنا، في حين كانت ثنية وادي الأبيض على بُعد ميل تقريباً للشمال.

ولابد أن طول الوادي الإجمالي من مستجمع المياه حتى هذه النقطة يبلغ حوالي خمسين ميلاً تقريباً، وكانت قمة الرس واضحة للرؤية قرب رأس وادي صريم للجنوب قليلاً من الشرق، بينما كان وادي الشرف الشديد الانحدار يهبط في خط مستقيم من منحدرات الشُرَيّف المقابلة. كان هذا أحد الطرق القديمة لحجاج الإبل القادمين من مصر، بعد أن يعبروا صحراء سيناء إلى العقبة، ويأتوا من هناك على طول الساحل، ثم يلتفوا حول الأراضي الداخلية من هنا ويلتزموا وادي عفال حتى الساحل قرب عينونة. إن ممر الحجيّة الذي تلتف به قوافل الإبل حول الحافة الشمالية لجبل اللوز حتى تهبط في وادي عفال يمتد تقريباً للجنوب منا، ويرتفع ارتفاعاً تدريجياً، ويوجدُ على مقربة منه تحت تل آخر يُسمى قصيراً نبع ماء يمكن أن تتزود منه القوافل، ويلتقي الوادي الذي يتدفق بين سلسلتين من الجبال الشاهقة جداً، بالكثير من الروافد من كلا الجانبين على امتداد

طوله بالكامل بدءاً من ملتقى صُرَيْم حتى خرائب مدين، والروافد على الضفة اليسرى المنحدرة من جبال اللوز والمنحدرة من الشمال إلى الجنوب تتمثل في سبيط وشمرخ وخبيت والحَجيّة وملحة والعين وعلجان وأم مطر والمواث. أما سلسلة الروافد على الضفة المقابلة فهي الجرف والحوى والعريجي والأعقر ونثيب النُتيش والمرفد ولبونة ونصب الشعراء وقلخة وعجوجة والرغامة.

يتراوح عرض الجزء العلوي من الوادي بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ ياردة في الاتساع، مع وجود أحواض أوسع أحياناً تسمح برؤية رائعة للجبال الشاهقة، ومنها قمة جبل اللوز التي كانت تظهر فوقها رقعة من الثلج، وقد أكد الدليل أنها فعلاً ثلج، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه كانت المرة الأولى والوحيدة التي أرى فيها الثلج على الإطلاق بالمملكة العربية السعودية، على الرغم من أنني سمعت أحياناً بتقارير عن تساقط الثلج في جبال أبها وغيرها، ويشمل ذلك الصحراء شمالي حائل[1].

وفي أثناء هبوطنا الوادي واجهنا في أماكن مختلفة بعض النتوءات والتلال الصغيرة الجميلة حقاً بأشكال واضحة المعالم ذات لونين أحمر وأسود، صنعتها خنادق من صخور الرايوليت

(١) في يناير ١٩٥٧م أبلغ عن سقوط ثلج كثيف على القويعية في مرتفعات العرض غرب الرياض وذكر شاهد عيان أن الثلج غطى المنطقة لارتفاع ستة أمتار. (المؤلف).

والإندست في الطبقات الأشد قدماً من الصخور الجرانيتية الرمادية القاعدية. وتبدو الخنادق متنوعة ومتعددة الأوضاع، فأحياناً تكون رأسية، وأحياناً أفقية، وأحياناً تغطس بانحدار شديد، وأحياناً متموّجة، وفي كثير من الحالات يقع خندق الرايوليت بين طبقتين متداخلتين من البازلت.

وبعد حوالي عشرة أميال من مخيمنا مررنا على مدخل شعيب الحوى على يميننا، نازلاً من قمة الخزانة على يسار جبل شعل، وفي مساره يلتقي عند المنحدر بوهد سيل العرف وبين الاثنين يوجد مرتفع صغير لكنه ظاهر بوضوح يُسمى جبل الغلاين صاحب اللون الأصفر الفاتح الذي يستغل البدو الحجر الصابوني المتوفر فيه لصنع غلايين التبغ الضعيفة نسبياً.

ويتكوّن جبل شعل والمنحدرات المقابلة له من الجرانيت مع الخنادق الكثيرة من طبقات الرايوليت والإندست. وبعد اثني عشر ميلاً ينكمش الوادي عند النتوء الأسود بالضفة اليسرى، الذي يُعرف باسم نزلة الرفيعة والذي توجد على قمته بقايا قلعة قديمة، لا ريب أن الغرض منها كان السيطرة على الممر الضيق وحمايته من الأعداء. من هنا استدرنا قليلاً للغرب من مسارنا الغربي عموماً نحو تل لبونة البازلتي البارز، بعد حوالي ثلاثة أميال. وعلى طول الوهد في

جانب مجرى التيار من هذا التل كان موسل قد جاء من العقبة على ساحل الخليج، ودخل وادي عفال في طريقه إلى مدين.

ومن الطريف أن نذكر أنه بعد حوالي ميل عكس اتجاه التيار من مضيق نزلة الرفيعة وعند مدخل شعيبي السدرة والمتاهة من الضفة اليسرى، عندما يكوّن الوادي ثنية واسعة، حاول البدو المحليون حفر بئر، ولكنهم تخلّوا عن هذه المهمة يأساً عندما طمر سيل مفاجئ الحفرة التي كانوا حفروها بشق الأنفس لحوالي ثلاث قامات. وبعد تل لبونه مباشرة تقريباً، دخلنا الثنية الحادة لمضيق قلخة أسفل النقطة التي ينحدر عندها شعيب الأجان (ربما يكون هو الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، لأن حرف "ك" يُنطق أحياناً " ج ") من حافة اللوز مقابل خط تصريف صغير يسمى المابيه، في مضايق القلخة لا يزيد اتساع الوادي عن ٢٠٠ ياردة، بينما يكوّن قاع الوادي من الرمال الكثيفة ثنية مزدوجة بزاوية قائمة، مع منخفضٍ في أحد الأركان فيها أحياناً عبارة عن بركة.

وبعد ثلاثة أميال من المضيق تغيرت خواص المنطقة فجأة تماماً. فمنحدرات اللوز والمقلعة الجرانيتية، بخنادقها البازلتية وعروقها وطبقاتها السطحية، قد أفسحت المجال لأرض سهلة قليلة الانحدار، حيث تلتقي فيها الفروع الكثيرة لوادي مواث مع القناة الرئيسة.

طلبت التوقف هنا لتناول المرطبات ولكي ندرس هذا التغيّر الجديد. لقد كان الطقس أصيلاً دافئاً ومشمساً، ولكننا تضايقنا كثيراً من الذباب خلال توقفنا.

وكانت المنطقة تبدو قاحلة وجافة قليلاً، وقال لي زيد إنه لم يكن هناك مطر أو سيول جديرة بالذكر في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات مضت، ولم نجد أي أثر مهم يدل على وجود نقوش في الوادي كله، بل ولا حتى الخربشة باللغة العربية التي يتركها الحجاج، وهذا يعود بلا ريب إلى صفة الصخور هنا، إذ إن معظمها من نوع الجرانيت الرماي والفلسبار الوردي وبه عروق وخنادق من الإندست والرايوليت.

وبعد أن خرجنا الآن من منطقة الصخور القاعدية وعروقها البركانية القديمة، اتسع الوادي لما يزيد عن ميل بين مرتفعات متحدرة ومتتابعة، ويرتفع في بعض الأماكن إلى ٤٠٠ قدم أو نحوها، ويتكوّن من رمل جرانيتي خشن ممزوج بكتل من البازلت، والجرانيت والفلسبار من جميع الأحجام والأشكال، وكان بعضها يتناثر على المنحدرات الصاعدة من القناة. كان السطح ناعماً وهشاً، ونشأ عندي انطباع بأن هذا كان كوماً هائلاً من الأنقاض في المراحل المبكرة من التكوّن والتكتل، أي مثل التحلية شبه المطبوخة. وكانت ضفاف وادي عفال تقل في الارتفاع كلما هبطنا في القناة، وبعد

دخول فرعين من شعيب مطر من اليسار، لم تكن جوانب الوادي أكثر من أجراف طينية بارتفاع عشرة إلى عشرين قدماً بينما نجد المرتفعات المتكتلة خلفها على الجهتين، وكنا نقترب من جبل متعارض منخفض والذي بدا أنه يمتد على طول المسافة عبر الفسحة العريضة التي تشبه الدلتا، كما تمر القناةُ بمضيق بين اللسانين الشاهقين لجبل الشقدوين التي تسمى أيضاً الرغامة (وهي كلمة تعني القصبة الهوائية وتستخدم كثيراً في هذا المكان للدلالة على مضيق أو ممر).

إن تحلل الطمى عكس اتجاه التيار من هذا المضيق يعود -بلا ريب- لحجز السيول في المضايق، وكان هذا الامتداد الفسيح كله يبدو مثل منطقة مراعٍ غنية جداً، على الرغم من أن حالة هذه المراعي تعتمد على الأمطار الموسمية، وكان المضيق نفسه، الذي يبلغ متوسط عرضه ٢٠٠ ياردة تقريباً ويقل طوله عن ميل، ويتسع الوادي في طرفيه لنحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ ياردة، واللسانان العظيمان، اللذان يرتفعان حوالي ٧٠٠ قدم أو أكثر فوق الطرف الغربي للممر ينتصبان على قاعدة علوها مئتا قدم من مزيج صخور الكتل الوعرة التي وصفناها آنفاً، ويوجد من فوقها طبقة من الحجر الجيري قليل الاصفرار سمكه ١٠٠ قدم، وفوق تلك الطبقة طبقة أخرى سمكها ٢٠٠ قدم من مزيج الكتل المماثلة، وأخيراً طبقة سمكها ٢٠٠ قدم

من الحجر الجيري الضخم على القمة، عند هذه النقطة كنا قد قطعنا ٣٢ ميلاً من مخيمنا في ملتقى صُرَيْم، وهكذا يصل إجمالي طول وادي الأبيض - عفال إلى ٨٢ ميلاً حتى الآن، ويستمر بعد ذلك بقناة محدودة مسافة قليلة، ولكن فور اجتيازه بقايا عاصمة مدين يبدأ في الاتساع في دلتا تزداد في الاتساع باستمرار حتى تصل البحر، أي بمسافة إضافية قدرها ٣٠ ميلاً من المضيق، أو بمجموع إجمالي قدره ١١٢ ميلاً.

من نقطة عالية تمنح رؤية ممتازة على قاعدة اللسان الجنوبي استطعت أن أرى جبال سيناء بوضوح تام، والجبال التي تصطف على خليج العقبة على الجانب القريب منها، والخط الطويل لجبل تيران يمتد على طول الجانب البعيد من الوادي المؤدي إلى البحر عند ميناء مقنا، بيد أن كل ما استطعنا رؤيته من هدفنا المباشر كان قليلاً من النخيل في أقصى الطرف الأيمن لواحة البدع، تلوح على خجل حول رأس مستدق لجبل منخفض حجب عنا رؤية ما تبقى من آثار عاصمة مدين، كان النخل على بُعد ميلين تقريباً، وسرعان ما اقتربنا منه، لنجد أنفسنا في بستان صغير طوله ميل وعرضه ١٥٠ ياردة تقريباً، يتناثر فيه عدد من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل وفروع الشجر، وكان أحدها بيتاً للحكومة المحلية، أي مقر قيادة قوة صغيرة من الشرطة تحت إمرة ضابط صغير، وأمام هذا الكوخ يقع

المسجد المحلي وهو بدون جدران أو سقف، مجرد مساحة مستطيلة محددة بصف من الحجارة، ولم يكن هناك أي إنسان في المكان، بينما الريح المعتدلة التي تهب فوق رؤوس النخيل تصدر حفيفاً يُذكر بأرواح سكان ميتين. إنّ للبدْع شهرة صحية سيئة بسبب الملاريا المتوطنة، والتي يزدها تفاقماً العدد الكبير من الآبار الضحلة التي لا يتجاوز عمقها ثلاث أو أربع قامات وتستمد مياهها من الوادي من خلال مجرى تحت الأرض.

لقد وجد موسل في عام ١٩١٠م المجرى يسير على السطح، وهذا ما يمكن أن يحدث بلا ريب في أي وقت خلال مواسم الأمطار الوفيرة. إن البدو أصحاب هذا النخيل لا يأتون إلى هذا المكان إلا لجمع المحصول ولا يتجشمون حتى عناء تلقيح النخل بل ويتركون ذلك للطبيعة ولكن بنتائج غير مجزية طبعاً، لقد كانت بقعة بائسة وكئيبة فيها شيء من السحر الحزين على وجه يتيم مهجور. بيد أن المشكلة الماثلة أمامنا الآن كانت في عدم وجود دليل يرشدنا إلى كهوف جثرو (مغاير شعيب) حيث كنا نفكر في نصب خيامنا لأيام قليلة لفحص الموقع كله فحصاً شاملاً ودقيقاً، والذي قام كل من بيرتون وموسل باستكشافه ووصفه وصفاً كاملاً، ومن المثير للدهشة أن رفاقي، وكلهم قد مروا من خلال البدع من قبل جيئة وذهاباً بين تبوك وضباء، لم يتجشموا أبداً عناء زيارة مشاهد أنشطة جثرو

(شعيب) المذكورة في القرآن الكريم، ناهيك عن المواقع التقليدية المرتبطة بموسى (عليه السلام)، وكان لزاماً عليّ أن أتولى زمام المسؤولية عن هذه الإجراءات، معتمداً على ما تحفظه ذاكرتي من خرائط موسل التخطيطية، ولكن في لحظات قليلة كنا في قلب الآثار والقبور، ونحن نستقر في مخيمٍ في حماية جبل من الكتل الصخرية ذات اللون المرجاني وأمام قبر صخري بحجم مقدر ولكنه مهدم بالكامل. لقد اختفت واجهتُه، وكل ما بقي داخله كان اثنتي عشرة تجويفة في الجدار الخلفي، مواجهة للمدخل، وثلاث تجويفات مماثلة في الجدار على يمين الفتحة.

ومن الواضح أن هذا القبر كان قبواً لعائلة لها بعض الأهمية ولكن لا يوجد أي دليل على شخصية بُناته أو أصحابه، وقد أعطيت هذا القسم من المقبرة اسم "المجموعة أ". وقبل حلول الظلام ألقيت نظرة عجلى على مجموعات أخرى مختلفة من القبور على الجانب الآخر من الجبل نفسه، والذي يُعرف لدى العرب باسم مصلى شعيب. وكل هذه القبور بالطبع نبطية، وبالتالي بعد عصر شعيب بما يقترب من ١٥٠٠ عام.

من الغريب أن القرآن الكريم لا يذكر شيئاً عن حكم الأنباط، على الرغم من أنه يذكر مرحلة من التاريخ أشد قدماً، التي لم يكتشف دليل أثري يدل عليها حتى الآن. وقد سمى موسل آثار

المدينة على طول الضفة اليمنى من وادي عفال باسم الحوراء إلا أن هذا الاسم يبدو أنه قد اختفى من ذاكرة السكان المحليين، وكل استفساراتي التي وجهتها الآن وفي مناسبات أخرى للبدو المساعيد وهم أصحاب نخيل البدع والوادي بصفة عامة قد فشلت في إثارة أي جواب عن أسئلتي الإيحائية عن الموضوع، بل إنهم في الحقيقة لا يطلقون اسماً على هذه الآثار بل تُعرف لديهم بصورة مبهمة باسم رقبة المالحة الذي يبدو أنه لا يعني أكثر من مجرد جبل أو جرف من الوادي يطل على بستان نخيل صغير يسمى المالحة ويحتوي على جذع نخلة بالغة الطول حتى إنها أصبحت معلماً واضحاً على بُعد أميال من جميع الجهات.

وبالطبع تعرف القبور باسم مغاير شعيب، وكلمة "الحوراء" التي تعني الطباشير أيضاً، وقد أخذها موسل لتعني "الأبيض"، وهذا نعت يصعب أن يكون ملائماً للآثار السوداء في المنطقة، وهي مثل كلمة "حوري" التي نطلقها نحن على حور الجنة بسبب سواد عيونهن. وفي جميع الاحتمالات فإن المعنى الحقيقي للكلمة يرتكز على المقابلة بين كلمتي أسود وأبيض.

ومن الطريف أن الكلمة نفسها قد استخدمها على ما أعتقد كلٌّ من بيرتون وموسل للآثار الواقعة في المناطق الواقعة إلى الداخل قليلاً من ميناء أملج الصغير على ساحل البحر الأحمر بين الوجه

وينبع والذي يطلق عليه الجغرافيون القدماء اسم لوكي كومي أي القرية البيضاء. وهنا أيضاً اختفى هذا الاسم من ذاكرة المعاصرين، وهنا أيضاً نجد الآثار سوداء مثلما هي عليه الآن، ومن البازلت في الحقيقة. والبيوت فقط في القرية الحديثة نسبياً على الساحل هي التي قد تبدو بيضاء للمسافرين بالسفن التي تمر عليها.

وتقع واحة المالحة الصغيرة في الوادي نفسه وتحت الآثار مباشرة، على بُعد حوالي ١٠٠٠ ياردة من مخيمنا قرب المجموعة (أ) من المغاير التي ينزل من على مقربة منها وهدٌ قصير من أجراف المصلى متجاوزاً الآثار حتى القناة. وكان في هذه الواحة عدد من الآبار بعمق ٣ر٥ قامة تقريباً وفيها ماء شديد العذوبة حتى إنه يقارن محلياً بالنيل. ومن هنا جاء هذا الاسم، الذي يعني "البئر المالح"، على أساس مبدأ المدح بما يشبه الذم. وكانت مساحة الواحة كلها لا تتعدى ٥٠٠ × ٢٥٠ ياردة في حجمها، وتتكون بالكامل من نخيل مع شبكة معقدة لا يمكن اجتيازها تقريباً بسبب الأعشاب والحشائش. ومن الواضح أن الصورة الفوتوغرافية التي التقطها موسل لهذا المكان كانت صورة البرج على مسافة غير بعيدة من هنا، ووصفه لصهريج مائي وعين متدفقة لا يمكن بأي حال أن ينطبق على المليحة التي كانت -بلا ريب- تعتمد دائماً على آبارها لري النخيل، ويعد صهريج البرج أروع مثال على ما قام به الأتراك من أعمال

حفظ المياه، حيث تبلغ مساحته ٣٠ × ٢٠ ياردة، ومشيد بطريقة ممتازة من الألواح الحجرية المشذبة، وله سبع درجات نازلة على الحوض في اثنين من أركانه، بينما يوجد درجتان فقط في الركنين الآخرين. وتعرف باسم الفسقية أي النبع وقد وجد موسل فعلاً ماءً جارياً هنا، على الرغم من أنه لم يوجد بالتأكيد أي دليل أو أثر على هذا الماء الجاري في وقت زيارتي. وعلى مقربة منه ينتصب تل البرج الصغير، وعلى أحد جوانبه، وتحت قمته بمسافة قصيرة توجد فتحة بئر عمقها ١٥ قامة ذات بناء متقن نسبياً، مع قوس متدل يقسم الجزء العلوي إلى قسمين، وبقايا جدران يحتمل أنها كانت من مبنى يغطي المنشآت كلها.

لقد كان من الصعب تخمين تفاصيل المبنى، الذي كان طول جداره الشمالي ٣٨ قدماً، وطول كل من الجدارين الغربي والشرقي ٢٢ قدماً تقريباً، وكانت هذه الجدران تمتد حتى حافة التل نفسه، التي كانت بهذا الشكل بمثابة الجدار الجنوبي، وتوجد خارج هذا المبنى مباشرة حفرة ليست عميقة يحتمل أنها كانت بمثابة حوض أو وعاء يؤخذ منه الماء، ولها قناة صغيرة تمتد ثلاثة أقدام مبنية من الحجارة تصل ما بينها وبين حافة البئر على طول أعلى الجدار الغربي، وقد قال لي الشيخ حسن من قبيلة المساعيد المحلية الذي رافقني خلال فحصي للموقع: إنه ليس من المعروف أن البئر تحتوي

على ماء في حدود ما يتذكره الناس في الوقت الحاضر وكان يطلق عليه اسم "السيدني" الذي ربما يكون تحريفاً من كلمة "سيدي" وذلك لأن المبنى كان من الواضح أنه ضريح لأحد الأولياء. وربما يكون الأتراك هم الذين أنشؤوه، وأن تاريخه يعود لزمن ارتياد الحجاج المصريين لهذا الطريق بعد نزولهم من العقبة، حيث كانوا ينصبون خيامهم بجوار الماء قبل أن يتقدموا للمحطة التالية في عينونة أو الخريبة. ولم يكن من العسير على منظمي الحج أن يتجاوزوا هذا البئر المديّني على أنه هو نفسه الذي سحب منه موسى (عليه السلام) ليسقي قطيع أغنام بنات شعيب. وبناءً على ذلك، فيحتمل أن يكون موسى هو الولي الذي خصص له الموقع.

والمنطقة المحيطة بموقع المخيم تغص ببقايا ما تركه الحجاج العابرون، مثل كسر الأواني الفخارية، وعدد هائل من حبات الخرز ذات اللون الأزرق الفيروزي من النوع العادي ربما كانت مصنوعة في ألمانيا أو بيرمنجهام، ومن الطريف أن زيداً قد أخبرني بوهد "شعيب الحجيّة" الذي ينحدر من عفال ويدخل في هضبة اللوز، والذي رأى فيه بعض الحجارة الزرقاء اللامعة، التي قد تكون فيروزاً، على الرغم من أن وصفه لهذه الحجارة كان يوحي بأنها ياقوت. ومن سوء الحظ أننا كنا قد تجاوزنا هذه المنطقة بكثير حتى إنه لم يعد من الممكن التأكد من ذلك، وفي رحلاتي اللاحقة لم أعثر

على أحد يعلم شيئاً عن هذه البقعة ولا محتوياتها الشهيرة، ولم يقم بيرتون أبداً بفحص أخاديد جبل اللوز أو الجبال الأخرى في سلسلة جبال مدين، وليس من غير المرجح أنها قد تحتوي على معادن من أنواع مختلفة. وكان جبل مقلاع البازلتي، الذي يشبه الهرم، يبدو من السهل تسلقه إلا أن قمم اللوز من الجرانيت الخالص كانت تستلزم من الوقت والجهد أكثر مما هو متاح لي الآن. وفي حدود علمي أنه لم يتسلقها كائن بشري أبداً.

ومن بئر موسى حتى مركز الشرطة الحديث في البدع مشينا مشياً يسيراً حوالي عشرين دقيقة، أي ميلاً تقريباً، على طول درب تحت جبل الدرك المرتفع قليلاً، والذي تغطي قمته ومنحدره آثار مبان قديمة بسيطة وبدائية. ومما لاشك فيه أنها جزء من مستوطنة نبطية أو لقوم أقدم منهم وقد بنيت مرتفعة فوق الوادي غير الصحي، الذي لا بد أن سكانه قد عاشوا بالتأكيد في الخرائب الأكثر اتساعاً في رقبة المليحة والملقطة. وعلى طول سفح الجبل يمتد سورٌ انجرفت بعض أجزائه وهو من المؤكد قد شيّد لحماية الطريق من انهيارات الأنقاض المفككة من منحدرات الجبل. وفي الحقيقة، خلال زيارتي الثانية عندما تعرضنا عدة ساعات لأمطار غزيرة فشلت محاولتي لتسلق التل تماماً بسبب الطبيعة اللزجة غير المضمونة لسطحه الجيري الناعم. وعلى مقربة من الواحة عند نهاية الدرب توجد مقبرة غير

مميزة، ويحتمل أن تكون للحجاج. وعلى أحد شواهد القبور كانت توجد طبعة يد كبيرة محفورة فيه، بينما كانت الشواهد الباقية بدون زخرفة أو أسماء. وكان الاتجاه الطولي للقبور للشمال قليلاً من الشرق وللجنوب قليلاً من الغرب، وهكذا تكون جثث المسلمين قد دفنت ورؤوسها للغرب ووجوهها نحو الجنوب باتجاه مكة. وفي هذا الوقت كانت قوة الشرطة الصغيرة قد عادت إلى مقرها، وبمناسبة زيارتي للبرج استضافني قائدها سعد بن إبراهيم لشرب الشاي والقهوة، وهو مواطن من الحريق في جبل طويق جنوب الرياض.

والسبب الرئيس في وجود مركز الشرطة هو منع الحجاج من التسلل داخل البلاد عبر هذا الطريق من الأردن وفلسطين بدون أن يدفعوا الرسوم الجمركية، ولهذا السبب كان لديه خمسة من الرجال المسلحين تحت تصرفه، والذين كانوا يقضون معظم وقتهم وهم يجوبون الصحراء على ظهور الجمال بحثاً عن المخالفين الذين لم يدفعوا ما عليهم من رسوم، وقد دعانا الشيخ محسن لزيارة خيامه على مسافة ما في وادي عفال، ولكني اضطررت لعدم قبول الدعوة لأننا كنا قد طلبنا سابقاً من سعد ورجاله أن ينضموا إلينا في العشاء. من الصعب أن نقول إنهم كانوا متحمسين للدور الذي يؤدونه في الدفاع عن الحدود السعودية، فقد كانت رواتبهم متأخرة لفترة

طويلة، ولكنهم كانوا يحصلون على مؤونتهم على فترات متقطعة من مقنا أو الخريبة وكان بعضهم قد اتخذ زوجة له من قبيلة المساعيد المجاورة، وكانت مشاركتهم فيما أعرفه عن المنطقة ضئيلة ولا تكاد تذكر، على الرغم من أن سعداً كان يروي قصة موسى وشعيب بسهولة بالغة، وقد تطوع أيضاً بتزويدنا بمعلومة صغيرة من المعلومات، والتي لا بد أنه قد اختارها من بعض الكتب أو القصص القديمة التي لا علم لي بها. فقال إن منطقة مدين قد شهدت ازدهار وانحطاط خمس أسر حاكمة، بدأت بشعيب من بني أبجد الذي تزوجت ابنته موسى (عليه السلام)، وجاء الحكام من بعده من قبيلة هوّز التي أفسحت المجال لقبيلة حطي وتلاها في الدور عشيرة كلمن ثم سعفص ثم قرشت.

وهكذا يكون العدد قد اكتمل بستة أسر حاكمة، وربما كان يستطيع أن يكمل السلسلة بثخذ وضظغ حتى يكمل الكلمات الثمانية في النظام التقليدي الذي يحدد الحروف الأبجدية وهو نظام له دلالة رقمية، مثل حروف الهجاء اليونانية، حيث تمثل الحروف الثمانية والعشرون الوحدات، والعشرات، والمئات، حتى الألف (غ). وقد بدا أنه غير واع بهذه المصادفة.

ومن الطريف أني نسيت أن أذكر القلعة بموقع البرج التي كان من الواضح أن الأتراك شيّدوها للسيطرة على البئر لصالح الحجاج.

وتقوم هذه القلعة على أرض مرتفعة قليلاً على بُعد حوالي عشرين ياردة شمال البئر، ومقاسها ثماني عشرة ياردة من الشمال للجنوب وخمس عشرة من الشرق للغرب، وتتجه جدرانها جميعاً نحو الجهات الأصلية الأربع في البوصلة.

إنها الآن في حالة يُرثى لها من عدم الحفظ والصيانة، على الرغم من أنها مشيّدة -كما هو واضح- بعناية فائقة من حجارة البناء الصغيرة المشذبة تشذيباً جيداً، والمترابطة في مكانها بملاط من الطين، وقد انهار الجداران الشرقي والشمالي انهياراً كاملاً، ولم يبق منهما إلا الأساسات التي يمكن تتبعها تحت أكوام الأنقاض التي تكدست فوقها، والجدار الغربي سليم حتى المدماك العاشر، الذي يرتفع حتى الثالث عشر مسافة قصيرة قرب الركن الجنوبي - الغربي، ومنه يمتد الجدار الجنوبي سليماً على امتداد طوله البالغ ثلاثة عشر مدماكاً، والذي يرتفع بمقدار تسعة أقدام، على الرغم من أن صالة المدخل قرب هذا الركن من الجدار الجنوبي قد سقطت وانهارت بالكامل ما عدا جدارها الداخلي الموجود بعيداً نحو ثلاث ياردات عن خط الجدار الخارجي.

لقد جذبت نيران مخيمنا وأنواره حتماً الضيوف من المراعي المجاورة، حتى إنه نادراً ما نكون بلا صحبة خلال تناول الطعام وحول موقد القهوة، ولهذا استطعت أن أجند دليلاً جديداً محل

زيد. وكان يُدعى عيد بن محيسن من المساعيد، والاسم الذي سمى به آثار الحوراء كان الملقى، وقد فسّر هذا الاسم بأنه يعني المكان الذي يمكن أن يعثر فيه المرء أو يجمع أشياء مثل العملات القديمة، أو قطع الزجاج وكسر الأواني الفخارية؛ وهذا اسمٌ غير مناسب تماماً لإطلاقه على المنطقة الرئيسة من الآثار على الضفة اليمنى، لأنه توجد رقعة أخرى كبيرة نسبياً من الآثار على "جزيرة" في منتصف الوادي، والتي تُعرف لدى البدو بالتحديد باسم الملقى، هذه الملاقي أو (الملقطة) كانت ثرية على نحو خاص بكسر الأواني الفخارية المتعددة الألوان والأنواع وهي ربما تكون نبطية، على الرغم من أنها يُحتمل أن تكون من العصور الوسطى.

ومن المفيد أن نقف على وصفها قبل أن ندخل في الحديث عن المدينة الرئيسة. تقع هذه "الجزيرة" على بُعد أقل من ميل عن بستان نخيل المليحة، وتكوّن شكلاً بيضوياً وعراً من الطمي، الذي يرتفع سطحه إلى ما يقرب من عشرة أقدام فوق الوادي المغطى هنا بكثافة بأشجار البلميط (الحيش: نوع من النخيل قصير ومروحي السعف) ونبات الطرفاء، ومن المحتمل أنها تمثل موقعاً لبساتين نخيل كبيرة في العصور الماضية. والمنطقة المأهولة محاطة بآثار سور طيني، به بقايا من برج في الركن الجنوبي – الغربي، وخزان مياه صغير قرب الركن الجنوبي – الشرقي ولكنه يقع خارجه. هذا الخزان يُستفاد منه الآن

كحقل للمزروعات البسيطة التي يزرعها البدو، مثل الشعير والدُخُن، التي تنمو على التربة الطينية التي ملأت الحوض الذي ما يزال بلا ريب يستفيد من السيول، ومن الركن الشمالي - الغربي للمساحة المسوّرة يمتد جدار آخر في اتجاه الشمال لنحو مئة ياردة ليتصل بجدار متعارض يبلغ طوله مئة ياردة ويمتد شمال - شرق وجنوب - غرب. وربما كان خندقاً لحماية الجزيرة من قوة السيول القصوى. والنسبة العالية من أجزاء وكسر الأواني الفخارية المتميّزة تماماً توحي بأن هذه المستوطنة الجزيرة كانت مقراً لسكن الناس ذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة الذين كانوا يفضلون العيش خارج المدينة الرئيسة.

تمتد المدينة الرئيسة على الضفة اليمنى للوادي حوالي ١٢٠٠ ياردة، وتنحدر انحداراً قليلاً نحو الشرق نسبياً من الجنوب. وتنقسم إلى ثلاثة أطوال متساوية تقريباً بواسطة قناتي تصريف قصيرتين منحدرتين من الأرض المرتفعة بحبل المصلى، وهناك قناة ثالثة مشابهة لهما تمر في القسم الأوسط لتملأ خزاناً داخل زاوية البقعة التي تشبه حرف (L) الإنجليزي. وقد تكَوَّن هذا الشكل من جزئي القناة اللذين يملأ أحدهما طول الوادي الرئيس ويبرز نحو الغرب باتجاه التل، وهذا الخزان، الذي وُجه شمال - شمال - شرق جنوب - جنوب - غرب، عبارة عن مبنى مربع يبلغ ضلعه سبعين

قدماً، ومشيد من صخور البناء الخشنة التي صفت بالمونة وتمت كسوتها بالإسمنت الجبسي، الذي توجد رقع منه باقية حتى الآن. ولا يمكن تحديد عمق الخزان لأنه مملوء بالأنقاض والركام، ولا بد أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن أدى الغرض الذي شُيّد من أجله لآخر مرة، وهو يحتل مساحة تبلغ اثنتي عشرة ياردة داخل ثنية المساحة على شكل حرف (L) وعلى بعد مسافة ٢٠٠ ياردة تقريباً من هذه الثنية نحو الجنوب - الغربي يوجد مبنى طويلٌ قُبَالة قناة مصلى شعيب ماراً بقبور المجموعة (أ) ومخيمنا، أو ربما بالأحرى على الضفة اليمنى لأحد الفرعين من القناة الذي ينقسم كلما اقترب من الخرائب، ويشغل المبنى مساحة تُقدّر بحوالي ١٠٠ × ٤٠ ياردة بين الفرعين، وربما يمتد حتى يصل كليهما على الرغم من أنه لا توجد أي علامة أو أثر باق من مثل هذه السدود. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يكون القصد منها تحويل المياه الجارية لتصب في الخزان.

ومن ناحية أخرى فإن قواعد الأساس -وهي كل ما تبقى الآن- توحي بأنه ربما كان حديقة أو بستان نخيل يُسقى من هاتين القناتين وهما في طريقهما إلى الخزان.

إن القناة التي تفصل القسم الأوسط عن القسم الجنوبي من المدينة تنحدر من منطقة القبور الرئيسة على الجانب الآخر من المصلى من مخيمنا، وبين هذه المنطقة وأسوار منطقة الآثار يوجد عدد من الأكوام أو الآكام المنهارة ذات أحجام وارتفاعات متفاوتة والتي ربما تكون بقايا مساكن، وهذه الآكام مصنوعة من الحجر الجيري

الجبسي، وفي حالة واحدة على الأقل تبدو القاعدة قطعت في مربع لتصبح أساساً للبناء ويتكون معظم الأنقاض على منحدراتها من الفلسبار المتحلل بيد أنني وجدت قليلاً من الكسر الفخارية، التي ربما قد تكون انجرفت أو انطمرت.

ويبدو أن القسم الشمالي من منطقة الآثار كان مستوطنة للفقراء، وربما الحرفيين والعمال من أنحاء المنطقة. أما القسم الجنوبي، الذي يمتد بالتوازي مع واحة مليحة في قاع الوادي، فيتمتع بمظهر متميز وفخم، ولاشك أنه كان مركزاً لطبقات المترفين والحكام، ويحتمل أن يكون القسم الأوسط هو المقر التجاري والسوق، الذي يتمركز على الخزان المائي.

كان القسمان الأوسط والجنوبي مسورين من جميع الجهات، إلا من جهة ضفة الوادي، إذ يبدو بالطبع أن المياه كانت السبب في إزالة الأسوار إذا كانت موجودة فعلاً. ومع ذلك توجد آثار كبيرة من الأسوار والأبراج على طول مجرى القناة الشمالية حتى النقطة التي تبرز عندها في الوادي الرئيس، من الواضح أن هذا الركن قد تمّت تقويته ليقاوم السيول، وأنها قد دمرته بصورة سيئة. ويبدو أن القسم الشمالي لم يكن له أسوار، ويبدو أيضاً أنه كان مأهولاً في العهود المتأخرة كثيراً، ربما من قبل البدو أصحاب النخل عندما يأتون لجني ثمار التمر، أو من قبل الحجاج. والأرض المنخفضة بين بقايا المساكن والوادي كانت مستخدمة على نطاق واسع كمقبرة.

ولم يبق إلا أقل القليل -ما عدا أنقاض البناء والحجارة المختلطة بلا انتظام- من المباني التي لابد أنها كانت تُزيّن القسمين الرئيسين من المدينة، ولكن يستطيع المرء أن يميز هنا وهناك أجزاء من الأسوار، أو أساسات المنازل أو الغرف. والجزء الجنوبي من القسم الأوسط فيه ملامح معمارية تشير إلى أنه كان حصناً أو قلعة تشرف على ضفة الوادي، ويبدو أن هذا القسم كان أقل ازدحاماً وتكدساً بالمباني، وبالتالي كانت توجد به مساحة واسعة لتشييد مزيد من المباني الفخمة والقصور، وفي خارج الركن الشمالي - الغربي من منطقة الحصن المشار إليها آنفاً يوجد مبنى مستطيل ذو حجم معقول، والذي ربما كان قلعة أو معبداً أو قصراً، وفي الوقت نفسه فإن القناة التي تفصل هذين القسمين لا بد أنه كانت فيها سدود أو جسور على ما يبدو مما تبقى من البناء على كلا الجانبين.

وتوجد أفضل سلسلة باقية من القواعد داخل الزاوية الشمالية - الغربية من منطقة الحصن حيث يسهل هناك تتبع الخطوط العريضة للغرفة بوضوح، التي تبلغ مقاساتها ثماني ياردات من الشرق للغرب في ست ياردات، وتوجد أيضاً أجزاء من القواعد المجاورة لهذه الغرفة، علاوة على أساسات غرفة أخرى أكبر منها نسبياً، أبعادها ٩ × ٧ ياردات.

ولكن نظراً لضيق الوقت وعدم توافر أدوات المسح والحفر معنا، كان من الواضح استحالة عمل أي شيء آخر أكثر من ذلك لتفسير مشكلة هذه الآثار، وعلينا أن ننتظر، ربما لوقت طويل، حتى يتم

عمل تنقيب أثري على أسس علمية في الموقع. ومن الملائم بدرجة معقولة أن نقول: إنه لا يوجد شيء من حضارة المدينيين في الآثار الظاهرة على السطح بالمنطقة كلها، بيد أن القبور، التي سوف أناقشها باختصار الآن، تؤكد أن الوادي قد سكنه الأنباط لفترة طويلة من الزمن، ولا بد أن ينتظر تاريخ المنطقة للفترة من بعدهم وما بينهم وبين المدينيين معاول علماء الآثار، على الرغم من أن الأواني الفخارية، الموجودة الآن في متحف جدة، قد تُلقي بعض الضوء على المسألة. إنني لم أتمكن أبداً من الحصول حتى ولو على وصف تمهيدي للعينات التي أخذتها إلى مصر منذ عدة سنوات مضت، وكل ما أعرفه عنها الآن أنها ضاعت أو وضعت في المكان الخطأ.

وتعد قبورُ الأنباط أو مغاير شعيب كما يسميها العرب المعلم البارز في منطقة مدين هذه، ومن واجبنا أن نقر بأنها لا تقارن بالآثار والتحف الرائعة في البتراء أو مدائن صالح، ولكن ذلك قد يعود إلى نوعية الصخور التي حفرت فيها معظم هذه القبور. وأفضل وصف لهذه الصخور أنها من الحجر الجيري المتحلل ومكوناته من الجبس وحبيبات الرمل الخشن يجعله هشاً وسهل التحلل، وفي مثل هذه الظروف يبدو من المدهش أن الريح، والمطر، والشمس على مدى ألفي عام لم تمح تماماً هذه الهندسة المعمارية الجنائزية للأنباط في هذا المكان، وسوف أذكر قائمة بجميع القبور التي رأيتها مع تفاصيل كاملة عن حالتها ومحتوياتها في الملحق الوارد في آخر هذا

الكتاب لكي يستفيد منه أولئك الذين قد يكونون مهتمين بمقارنة ما ذكرته مع ما ذكره بيرتون وموسل.

إن تقرير الأخير عن هذه القبور، الموضح بالصور الفوتوغرافية والرسومات البيانية الكاملة، لعملٌ مثالي من الطراز الأول، وقد يكون من المكابرة أن نحاول تحسينه. لقد كنت أحتفظ بكتابه الرائع معي أثناء زيارتي للموقع، واكتشفت أنه من المناسب بشدة أن أدوّن ملاحظاتي الخاصة على هامش صوره ونصوصه الوصفية، وإليها أحيلُ أيّاً من قرائي الذين قد يسعدهم الحظ يوماً بزيارة هذه الآثار. وفي نفس الوقت سوف أرضي نفسي هنا بذكر وصف موجز جداً لما رأيته بأم عيني.

ومن المجموعة (أ) قُرب مخيمنا، يوجد قبرٌ واحدٌ كبيرٌ به فتحات قليلة في الجرف والتي ربما كانت تؤوي الجثث، وقد قلت آنفاً كل ما هو ضروري أن يقال عنه. أما المجموعة (ب) على الجانب الآخر من جبل المُصَلىً والمفصولة عنه بقناة شعيب الجنوبية، فتتكون من مجموعة من سبعة قبور ومحفورة في جوانب تل صغير على مستويات مختلفة، وواجهاتها كلها في مراحل متفاوتة من التحلل والتفكك الفظيع، ففي حالات كثيرة لم تكن الجدران والأسقف إلا أكواماً من الحجارة، ولكن هناك ظاهرة عامة تشملها جميعاً ألا وهي أن القبور، إذا كانت هي فعلاً قبوراً، فإنها تأخذ شكل تجاويف منحوتة في الجدران. ولا توجد حالة واحدة تم فيها استخدام مساحة الأرضية للدفن.

والعدد الإجمالي للتجاويف كان خمسة وثلاثين، ويتراوح من تسعة إلى واحد في القبر الواحد. وتحتل المجموعة (ج) تلاً صغيراً معزولاً مماثلاً نحو الغرب من المجموعة (ب)، وبها خمسة قبور تتجه للغرب وهي في حالة أفضل من حيث الحفظ والصيانة، فعلى الأقل يستطيع المرء أن يميز القمم المدرّجة لواجهات ثلاثة منها، والتيجان في قبر آخر تشبه تلك التي عرفت بها كورنث (Corinth) اليونانية. وتاج آخر من نوع تيجان أعمدة البتراء يوجد في قبر خامس. هنا أيضاً كان يوجد الكثير من القبور المحفورة في الأرضية إضافة إلى عدد من التجاويف في الجدران، ومع ذلك كانت أفضل القبور في المجموعة (د) تلك المحفورة في جرف جبل المُصَلَّى في منتصف المسافة تقريباً بين سفحه وقمته وفي صخور أكثر قوة وأشد تحملاً. وليس في هذه المجموعة إلا ثلاثة قبور واحدٌ منها قد فقد من الناحية العملية واجهته كلها، على الرغم من أن داخله كان سليماً، وتبلغ مساحته أحد عشر قدماً مربعاً وارتفاعه ستة أقدام، وبه خمسة تجاويف على مستويات متفاوتة في جدرانه، وكان أحد هذه التجاويف بعرض خمسة أقدام وعمق ستة أقدام في الجدار، وبارتفاع خمسة أقدام.

ويوجد أيضاً تجويف آخر من هذه التجاويف بالحجم نفسه تقريباً، والباقي منها كان أصغر بكثير. المبنيان الآخران كانا أكثر جمالاً؛ فيهما واجهات رائعة تماماً وفي حالة جيدة من الحفظ والصيانة، وكل واحد منهما له مدخل مسقوف، وفيه جدران على

كلا الجانبين، بها منصة حجرية من ثلاث طبقات، والتي تستمر على طول جانبي الجدار الخلفي الذي يوجد فيه باب القبر الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام وعرضه قدمان ونصف القدم. وفي القبر الرئيس يوجد في أعلى الباب مثلث زخرفي مقوس، وقد امحى بالكامل تقريباً على الرغم من أن شكله يمكن أن يُرى على ارتفاع ثلاثة أقدام، وفوق ذلك يمتد الجدار الصخري حالياً أربعة أقدام تقريباً، وأسفل عتبة تدعم ستة أبراج متدرجة ونصف برج على كلا الطرفين وفوقها عارضة بارزة قليلاً ويكون الجدار فوقها عارياً ثلاثة أقدام، ثم يصل إلى عتبة ثانية تدعم خمسة أبراج متدرجة ونصفين، وفوقها مثلث بارز يصل إلى قمة طبقات الحجر الرملي، وفوقها يوجد حجر جيري صلد. ويبلغ إجمالي ارتفاع الواجهة عشرين قدماً أو أكثر بقليل، وعرضها ستة عشر قدماً تقريباً، وبها ارتداد بعرض خمس عشرة بوصة وعمق ست بوصات فوق الدرج على كلا جانبي المدخل.

والعمق الداخلي لهذا القبر يصل إلى خمسة عشر قدماً، وعرضه اثنا عشر قدماً، وارتفاعه سبعة أقدام، ويوجد مدخل آخر في جداره الخلفي حوالي قدمين فوق مستوى الأرضية بارتفاع ستة أقدام وعرضه قدمان ويؤدي إلى قاعة صغيرة مساحتها تسعة أقدام مربعة وارتفاعها خمسة أقدام ونصف القدم. وكانت هذه القاعة خالية تماماً، ولكن كامل مساحة الأرضية في الغرفة الرئيسة المكونة من ٧ × ٥ر٢ قدمين ونصف القدم تشغلها القبور الموضوعة طولياً بالنسبة للأبواب،

ستة منها في صف على طول الجدار الخلفي، وزوجان اثنان داخل المدخل مباشرة وهما مفصولان بممر يؤدي إلى القبور الداخلية.

ومن المؤكد أن هذه القبور كلها قد نبشها اللصوص بحثاً عن الأشياء الثمينة، وكان بعضها مملوءاً عن آخره بالعظام، بينما كان من الواضح أيضاً أن البعض الآخر قد تم تنظيفه لاستخدامه من قبل الإنسان أو للأغنام. وكانت هناك بعض بقايا من الخشب متناثرة في المكان، والتي ربما كانت بقايا التوابيت، والقبر الثاني كان في معظم الأحوال مشابهاً للأول، على الرغم من أن كليهما كان له إفريز فيه خمس قباب (برج) واثنتان فقط من أنصاف القباب (الأبراج). وكان فيه ضريح داخلي مثل الآخر، ولكنه في وسط الجدار على الجهة اليمنى، والمدافن مرتبة بالعرض على الجدار الأيسر، خمسة منها، بممر طوله أربعة أقدام يفصلها عن خمسة مدافن طولية على كلا جانبي الممر المؤدي إلى الضريح الداخلي واثنان على جانب المدخل الرئيس وثلاثة أخرى على الجدار الخلفي. وأعتقد أن هذين القبرين يمكن عدهما بقدر معقول من الثقة ضمن قبور الملوك.

ومن هنا تسلقت أنا ودليلي على الجرف لنرى "دوائر" شعيب على قمة جبل المصلى، ومنها نزلنا بسهولة بالغة إلى مخيمنا على الجهة البعيدة. ويخبرنا موسل أنه اضطر إلى أن يسير في دائرة من كيلومترين حتى يقترب من الجبل من جهة الشمال، بيد أن الطريق الأكثر استقامة لم يمثل أي صعوبة لنا. وهناك نصب من أكوام الحجارة يحدد البقعة التي يُعتقد أن شعيباً قد صلى فيها، وحولها من

جميع الجهات دوائر كثيرة يصعب أن نخمن معناها أو أهميتها، ويبدو أن بعض المواضع قد تم تحديدها لفائدة الحجاج الذين يزورون الموقع الذي جادل فيه شعيب (عليه السلام) قومه من أهل مدين. ومن هنا تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على سلسلة جبال مدين كلها حيث يقع جبل اللوز والقمم المجاورة له في الشمال - الشرقي وجبل مَقْلاع للشمال قليلاً من الشرق، ويفصل وادي النمير الأخير عن جبل المرّة الطويل المنخفض، الذي يمتد من الشرق إلى الجنوب - الشرقي، حيث تبرز قمتا حروب (هروب) الاثنتان أمام جبل الزُّهْد العظيم الذي يمتد حتى نقطة ليست ببعيدة عن البحر باتجاه الجنوب منا.

وعلى الجانب الآخر، من الجنوب - الغربي والالتفاف إلى الشمال - الغربي، تقع سلسلة جبال تحجب رؤيتنا لخليج العقبة وتيران والنُتَيْش وسك ومَرْشَه وزريق مع مرتفع عابدين الشاهق الذي يشير إلى الطريق المؤدي إلى ميناء مقنا الذي كنت سأزوره في اليوم التالي. بيد أن البقعة التي استولت على خيالي وتفكيري كانت هي قمة حراب الجرانيتية الناعمة ذات الرأسين (وقد نطق دليلي عيد هذه الكلمة "حروب") وهي الكلمة المرشحة الواضحة لتكون جبل حروب المرتبط بالهجرة اليهودية التي ورد ذكرها في الإنجيل، ومعها الشجيرة المشتعلة التي رآها موسى وكذلك ألواح الهدى اليهودية، وهذه القمة هي المرشح الوحيد لنيل هذا الشرف والتي تستطيع أن تدعي أنها حفظت الاسم. وفي حدود ما أعلم لم يذكر أحدٌ من قبل

وجود هذا التل في مدين أبداً[1]، وكنت بالطبع شغوفاً باستكشافه هو وما يحيط به. ولكن سيارتنا اللوري العتيقة لم تعد الآن صالحة للمغامرات الجبلية الوعرة، وكان عليّ أن أنتظر سنتين حتى أنال فرصة إشباع طموحي في ٣١ يناير ١٩٥٣م. وحيث إنني قد قمت بهذه الزيارة وحيداً مع الميكانيكي والدليل حسب الله يجدر بي أن أقحم هذه القصة هنا لإكمال الصورة عن مدين.

لقد وصلنا البدع في الليلة السابقة، بعد أن تركنا كل من بوج ومحيسن ليقضيا الليل في جبل المرو للقيام ببعض الأعمال الجيولوجية المكثفّة على المنطقة المجاورة له، وعزمت على أن أستفيد من وقت انتظاري في زيارة حُراب.

وركبنا سيارتنا على الطريق الرئيس نحو البحر حوالي ستة عشر ميلاً حتى نقطة رأينا عندها تل نخلة البارز في المنطقة الكبريتية للشمال قليلاً من الغرب بينما تقع قمة حراب الرئيسة من ناحية أخرى بين الشمال - الشرقي والشرق - الشمال - الشرقي (٥٨ درجة). وكنا الآن نشق طريقنا في منطقة وعرة في خط مستقيم بقدر ما تسمح طبيعة الأرض لنا بذلك، وفي مسافة ثلاثة أميال عبرنا

(١) لقد نصب ألويس موسل خيامه في وادي حروب (المصدر السابق صفحة ١٢١) ولكنه لم يشر إلى مكانته أو أهميته المحتملة في الإنجيل. ومع ذلك، ففي الملاحق (المصدر السابق صفحة ٢٦٣ و ٢٦٩ و ٢٩٧ و ٢٩٨) يذكر على وجه التحديد هذا الوادي بلفظة هروب. وبناءً على ذلك لست أول من يقترح هذه المكانة لحراب. على الرغم من أن اقتراحي هذا قد قدمته بصورة مستقلة. ومرجعية موسل القوية تؤكد التعريف الذي طرحته.

ثلاث قنوات فيضية من وادي عفال كلٌ منها بعرض ١٠٠ ياردة تقريباً، في حين كانت الثالثة على ما يبدو بوضوح قاعاً لنهرٍ مهجور، له مصطبة شاهقة من الحصباء على طول ضفته اليسرى، التي تسلّقناها بلا صعوبة، ومع ذلك واجهنا قناة أخرى، أشد اتساعاً وأكثر قدماً، بمصطبة مماثلة من الحصباء على طول جانبها الشرقي وعنده صعدنا إلى سهلٍ منحدر انحداراً لطيفاً. وهكذا رأينا مقطعاً عرضياً من وادي عفال يبين القاعين الحاليين لسيوله واثنتين من قنواته القديمة على مستويات أعلى. وكان سيرنا الآن يسيراً تماماً، ولو أن الأرض كانت رملية قليلاً في بعض البقاع، وبعد مسافة ميلين أتينا إلى درب إبل الحجاج، الذي ينحدر من المخيم في البرج على طول سفح الجبال، وفي النهاية يلتف حول النقطة البعيدة من جبل الزهد ليصل إلى عينونة. ووراء هذه الدروب مباشرة جئنا إلى آثار سير سيارتنا في الليلة البارحة، عندما كنا نحاول قدر المستطاع التزام طريق الحجاج، على الرغم من أننا في الظلام كنا أحياناً نضل عنها، لا سيما عندما كانت ممحوة في معابر الوادي المختلفة. وبعد ميلين وصلنا إلى حافةِ فجوة واسعة بأجراف من أربعين قدماً من الحجر الرملي والطمي على طول الضفة اليسرى، وارتفاع أسهل على جانبنا، تتناثر وتختلط فيه، بكل ما في الكلمة من معنى، جلاميد ضخمة من الجرانيت والبازلت بدءاً من الحافة المنحدرة لجبل حُراب الموجودة أمامنا مباشرة، ولم تستطع العربة اللاندروفر أن تتقدم أكثر من ذلك، وقمت بفحص الوادي وحافة

الجبل مشياً على الأقدام. يتكوّن الجبل من الجرانيت، بخنادق من البازلت على مسافات متقطعة، وتمتد من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الشرقي بزاوية مقدارها ثلاثون درجة.

ولم أحاول أن أقلد العمل البطولي الذي قام به موسى (عليه السلام) عندما تسلقه، إن كان قد تسلقه فعلاً[1]، ولكني قمت ببحث دقيق في الوادي وأجرافه ذات الحجر الرملي أملاً في العثور على بعض النقوش. وكل ما وجدته كان قليلاً من وسوم البدو، بيد أن القناة نفسها، بعرضها البالغ مئة ياردة وغطائها بأشجار وشجيرات السنط، والمدخل العميق للجبل الذي تخرج منه كان ذلك مثيراً للإعجاب حقاً. وكان جرف طيني هائل يشكل الضفة اليسرى مسافة ما من الفوهة الحقيقية للمدخل، بينما في الأسفل كان جرف الحجر الرملي أقل ارتفاعاً، وكانت الخمسة عشر قدماً الأولى من مستوى الوادي حمراء، مع طبقة ارتفاعها عشرة أقدام من الحجر الرملي الأصفر فوقها، وفوق هذه الطبقة طبقة سميكة من الطمي.

هنا وهناك كان الحجر الرملي قد أصبح أشد قوة وصلابة حيث اكتسى باللون الأسود مما يحتويه من حديد، واستناداً لما قاله حسب الله ينطبق اسم حُراب بصفة أساسية على الوادي، في حين سمّى الجبل نفسه باسم المنيفة (التي تعنى ببساطة "المرتفع"). وإذا كان لدى حُراب أي أسرار يبوح بها فإنه بالتأكيد لم يبح بها لي، ومن

(١) هذا التشكيك من المؤلف ليس في محله.

العسير أن نأمل في اكتشاف أي دليل على زيارة موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل لهذه البقعة، ولكن الاسم يوحي بهذه الذكريات على الأقل، كما أنه من غير المرجح أن يكون بنو إسرائيل قد تاهوا أربعين سنة في سيناء والصحراء المجاورة لها دون أن يجدوا طريقاً لهم في وادي مدين[1]. وعند عودتنا إلى السيارة سرنا باتجاه الشمال - الغربي في مناطق وعرة، ووصلنا بعد حوالي خمسة أميال إلى هضبة شاسعة من الحصباء، وكان عبورها قاسياً بصورة بالغة. ومنها نزلنا في واد واسع، ينحدر بين مصاطب حصوية، وبعد ذلك سرعان ما وصلنا الطريق الرئيس بعد حوالي أحد عشر ميلاً من المخيم.

لقد قضينا الجزء الأعظم من ١٥ فبراير في زيارة مقنا التي زرتها مرة أخرى أيضاً في مناسبتين لاحقتين (أي في أبريل ١٩٥٢م وفبراير ١٩٥٣م). وبعد مرورنا على تل قبور المجموعة (ب)، وعبور القناة المنحدرة من جبل المصلى إلى الآثار ووادي عفال، سرعان ما وجدنا أنفسنا في منطقة الحمضة ذات المراعي الواسعة، ووواديها يتدفق أمامنا في مجرى بين جبل تيران على اليسار وجبل النتيش (إنتيش) الجرانيتي الجميل ذي العروق البازلتية على اليمين، ويستمر هذا الجبل الأخير لما وراء الثغرة التي حفرها الشعيب المتدفق من جوار جبل الحمراء المماثل، حيث يتراوح عرض وادي الحمضة بين

(١) كلام المؤلف هذا غير صحيح؛ لأن بني إسرائيل وقعوا في التيه أربعين سنة بنص القرآن، قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

١٠٠٠ و ٢٠٠٠ ياردة حتى يدخل في أخدود جميل عرضه ٣٠٠ ياردة فقط، بين الجبال الحمراء والسوداء (الرايوليت والإندست) في المنطقة المجاورة لقمة عابدين.

وبعد ذلك تتسع القناة في مدرج طبيعي لتلتقي بوادي الخَرَج الذي يتدفق باتجاه الشمال في منطقة من جبال الحجر الجيري القائمة على قواعد من الحجر الرملي، والتي تمتد خلالها القناة الموحدة حتى البحر باسم وادي مقنا. من هذا الملتقى فصاعداً كان هذا الوادي يعج بغابة كثيفة من بساتين النخيل، التي لا يمكن أن تمر فيها سيارة، على الرغم من أن المسافة كانت حوالي ميلين فقط حتى مقنا نفسها والبحر.

وقد استغرقنا ساعة لنقطع مسافة ثمانية عشر ميلاً من مخيمنا في البدع حتى هذه البقعة، ومنها اضطررنا للسير في دائرة واسعة أربعة أميال على الأقل في أرض وعرة حتى نصل إلى مقصدنا. وبعد أن سرنا حوالي ميل في وادي الخرج استدرنا يميناً في المنحدر الرملي والصخري المؤدي في النهاية إلى بساتين النخيل على مسافة نصف ميل تقريباً من القرية ومن على قمة المنحدر وقع نظري لأول مرة على البحر فقد كان أزرق وهادئاً في خليج العقبة وجبال سيناء العظيمة من ورائه. وعندما وصلنا إلى النخيل وجدنا جدولاً مائياً جارياً، ينبع من عين الطيوري البعيدة لمسافة عن الواحة، ويتجه نحو البحر الذي لا يصله في الحقيقة. وعلى ساحل البحر نفسه يوجد اثنان من بساتين النخيل الصغيرة، في أحدهما كان يوجد قليل من

الأكواخ السكنية المصنوعة من سعف النخيل، بينما كانت القرية الرئيسة ذاتها تتكوّن من مجموعة بائسة من حوالي عشرين كوخاً تشبه سابقتها، وكان أحدُ الأكواخ الكبيرة فيها محمياً من الريح بصورة متقنة بسورٍ سميكٍ من أغصان الشجر المقطوعة حيث كان يتخذ بيتاً للحكومة المحلية. وكان في هذا الكوخ رقيبٌ وثمانية من قواته يحكمون مصائر مقنا وهم يكابدون لسع البراغيث والبعوض في الواحة، ويقومون بدوريات على الساحل لمراقبة تهريب السلع والبضائع إلى داخل أو خارج الدولة. ولم يكن بالقرية محلات أو دكاكين أو أي شيء آخر من أسباب الراحة والمتعة، على الرغم من أن حرس السواحل يتم إمدادهم بصورة دورية باحتياجاتهم عن طريق قوارب صغيرة (قاطرة) تذرع الساحل جيئة وذهاباً من ضباء. وكان من المعروف أن الميناء تدخله أحياناً قوارب بخارية صغيرة، ولكنه لا يصلح إلا للقوارب الشراعية (سنبوك) التي تجوب ساحل البحر الأحمر، لأن مرفأه محصور بين لسانين من الصخور المنخفضة قريبة من سطح الماء، وكانت أمواج البحر الهادئ الصغيرة الناعمة تصطدم بهما في تراخ وكسل خلال وقت زيارتنا. إن جميع بساتين النخيل في مقنا يملكها أفراد (غائبون) من بني عطية الذين اشتروها منذ زمن مضى من مُلاكها الأصليين من فخذ الفوايدة من قبيلة بني عقبة القديمة التي تمر الآن بأوقات سيئة في ظل السلام والنظام السائد بجزيرة العرب.

ويتكون صدر الشاطئ من رقعة رملية شبه دائرية، يسدها من الجنوب جبل طحيثات البازلتي، الذي يمتد حتى البحر، ومن

الشمال جبل الرغامة من الحجر الجيري، بلسانه الكبير المتجه نحو البحر ووراءه يبرز جبلا المَرْشة وزريق البازلتيان الشاهقان اللذان يشرفان على بساتين نخيل ومرفأ (طيب اسم) على بعد عدة أميال على الساحل، والذي لا ريب أن اسمه يرجع إلى حقيقة أنه بالتأكيد لا يصلح كميناء عند هبوب العاصفة. ومن المثير للعجب أن نتذكر أنه في الثلاثينيات من القرن الماضي (١٨٣٠م) ذكر جي. آر. ولستد وهو مساح بحري متميز ومكتشف لسواحل البحر الأحمر، رأيه الثابت في أن السفن البخارية الجديدة في عصره لن تتمكن أبداً من التغلب على العواصف في هذا الخليج الذي كان غير معروفٍ ذات يوم.

وخلال مدة إقامتنا القصيرة كنا نتمتع بكريم ضيافة رشيد بن عبد الرحمن، قائد حرس السواحل (الدورية أو خفر السواحل). وكان مواطناً من السيح في منطقة الأفلاج التي ظل غائباً عنها باستمرار في وظائف رسمية صغيرة متنوعة، يكسبُ منها راتباً ضئيلاً يعيش به على مدى ربع قرن من الزمان، وعندما حان وقت مغادرتنا، أرسلت اللوري ليسير في الطريق نفسه الذي جئنا منه، وزودته بتعليمات بأن ينتظرني عند رأس الوادي، وفي غضون ذلك انطلقت برفقة رشيد وبعض من رجاله، سيراً على الأقدام لرؤية الواحة وفحصها، كان الطرف الأسفل من بساتين النخيل يطل عليه تلٌ صغيرٌ يسمى النواصر بارتفاع ١٠٠ قدم، الذي كانت منحدراته الحادة نسبياً تتناثر عليها شظايا كسر الفخار وأنقاض المباني فوق

قمته، التي من الواضح أنها كانت المقر الراقي لسادة مقنا في العصور الغابرة، وعلى أنف جبلي في الطرف الغربي وجدنا سبعة أو ثمانية قبور طويلة بصورة غير عادية، وحولها كانت تتناثر محارات بحرية وعظام، بينما كان الطرف الشرقي من التل تحتله أنقاض قلعة قديمة تعرف باسم العويشة وكان بناؤها بسيطاً وغير مميز ويتضمن قطعاً كثيرة من الجرانيت والفلسبار، التي يعتقد أنه جيء بها من مسافات بعيدة نسبياً، ربما لأغراض الزينة، لأن التل نفسه والمنطقة حوله من الحجر الجيري، وكانت بقايا المباني الأخرى حول القلعة بلا شك مساكن للجند وخدم سادة الإقليم، ليس معروفاً على وجه التحديد تاريخ المجمع كله ولكنه قد يعود إلى وقت ما خلال العصور القديمة أو الوسطى. وكانت كسر الأواني الفخارية منتشرة في كل مكان، ويبدو أنه لا توجد روايات محلية بخصوص السكان السابقين لهذا الميناء البحري. وكان الجدول المائي، الذي يُعرف باسم المعيطر، والذي يجري عبر بساتين النخيل عند سفح التل، ينحدر من نبع بعيد مسافة ما في أعلى الوادي، ويعززه في أسفل الوادي نبع آخر يسمى الطيوري الذي يتدفق بغزارة من بين صخور الضفة اليمنى في شكل شلال رائع بين نباتات السرخس والطحالب.

وهنا تسلقنا بصعوبة الجرف والطبقة الكثيفة من الرمل المنجرف التي تغطيه حتى وصلنا إلى ارتفاع حوالي ١٠٠ قدم فوق الوادي حيث وصلنا إلى أهم معلم من معالم مقنا؛ ذلك هو نبعان قريبان من بعضهما، يتدفقان بغزارة من خلال طبقة رقيقة من الرمل والطين

السائل ليرويا بستاناً ضخماً حقاً من النخيل على القمة، ويسيلا بهدوء على جانب التل لينضما إلى المجرى الرئيس. كان هذا هو النبع الشهير المعروف بعين الطباخة (أي عين الماء الذي يغلي وليس، كما قال بيرتون عين المرأة الطباخة) والتي ترتبط في الأسطورة المحلية بقصة موسى (عليه السلام) ويقال إنها البقعة التي ضرب فيها الصخر بعصاه ليوفر الماء لبني إسرائيل.

ولم يكن الماء عند حواف البركة العظيمة التي كوّنتها العيون حاراً بصورة ملحوظة، وربما كان فاتراً، ولكن احتمال الخوض في الطين السائل قد ثبط عزيمتي لمحاولة اختبار صحة أو صدق الرأي المحلي على أنه كان حاراً عند النقاط التي يخرج فيها الماء من الصخر. إن الاعتقاد المحلي المتوارث جيلاً بعد جيل عن أصل هذه العيون تؤيده الآثار القريبة منها لمبنى متماسك صغير يعرف باسم "مسجد موسى" وكل ما بقي منه هو أساسات جدارين جانبيين، مصنوعين من أحجار كبيرة جداً من الصخر الجيري الجبسي يبلغ سمك الحجر الواحد خمس عشرة بوصة، والأبعاد الخارجية للمبنى كانت ٢٠ × ٥٠ قدماً والمحور الطويل يمتد تقريباً للشرق والغرب، أما الجانب الجنوبي، فيتجه نحو مكة المكرمة تقريباً.

لقد كان بلا شك مزاراً للحجاج الأكثر حباً للمغامرة الذين كانوا يخيمون في البدع وهم في طريقهم للمدينتين المقدستين، ولقد شُيّد في جميع الاحتمالات خلال القرون القليلة الماضية تحت رعاية الأتراك، ومن هنا، بعد مسح المنطقة حولنا، هبطنا في الوادي عند

عين معيطر التي كانت شبه مدفونة على الرغم من أنها كانت حية بصورة واضحة تحت كتلة متشابكة بشكل مذهل من أشجار النخيل المتساقطة، والسعف والأغصان والأعشاب التحتية المتقطعة، التي كان من الصعب حقاً أن نشق طريقنا خلالها. والنخيل بعد هذه النقطة لا ينال حظه من الماء إلا من الأمطار والسيول الموسمية، على الرغم من احتمال وجود رطوبة جوفية عالية في المنطقة.

وبسبب الأعطال الدائمة في السيارة اللوري استغرقنا ثلاث ساعات لنصل إلى مخيمنا في رحلة العودة، حيث أتيحت لي فرص كثيرة لدراسة الوادي على مهل، إن اتجاهه العام من الشمال - الشرقي إلى الجنوب - الغربي، ولجبل تيران الواقع أعلى طول ضفة الوادي اليسرى طبقة فوقية كثيفة من الحجر الجيري تغطي الطبقة الأساسية من الجرانيت والفلسبار تحتها، وعلى الضفة اليمنى لم يكن هناك حجر جيري على أي حال بينما كانت صخور الرايوليت سائدة بصورة عامة في الامتدادات السفلى وفي أجنحة جبل النتيش والجبال الأخرى من خلفه. وعلى مسافة ستة أميال تقريباً من نخيل مقنا كان وادي الحمضة الذي يلتقي هنا بشعيب المطيرف من منحدرات جبل تيران، قد تحول إلى منطقة مراعٍ واسعة تعرف باسمٍ مستقلٍ هو الحنجور.

وبعد ذلك بثلاثة أميال تبرز ساحة صخرية شاسعة في الوادي من جبل تيران على جانبي خط تصريف مياه واسع يسمى وادي الأمغر ليلتقي بخط تصريف شعيب العجوجة الذي ينحدر من جبل

منخفض بالاسم نفسه على الجهة الشمالية من سهل الحمضة الذي يختلط فيه، وتوجد هنا شجيرات الحمض والرمث التي كانت جافة نسبياً هذا العام، على الرغم من أنه بعد ذلك بعامين وبعد هطول أمطار طيبة، أصبحت كأنها غابة مزدهرة. وعلى بعد ثلاثة أميال عكس اتجاه التيار، عند حافة وادي الحمضة، يقع مشرب دحل حمضة وهو حفرة كبيرة مفتوحة تم حفرها في طمي الوادي، غير مبطنة بالحجارة ولكن عليها جذوع أشجار موضوعة متعارضة على أحد زواياها حتى يقف عليها الرجال وهم يسحبون الدلاء الجلدية. ويبلغ عمقها ست قامات تقريباً، ولم أستطع رؤية أي أثر للماء في القاع، على الرغم من أن الدليل قال لي: إنه يوجد أنفاق داخلية، تؤدي إلى البئر من اتجاهات مختلفة في متاهات جوفية في واحد أو آخر منها يمكن دائماً العثور على الماء تعويضاً عن مشقة النزول للقاع واستكشاف جوانبه. بعد ذلك بحوالي ميلٍ أو نحوه يبرز تلٌّ طويّل الحمضة المنخفض، لكنه ظاهر للعيان بوضوح، ومنه ألقيتُ نظرةً أخيرة على المنطقة قبل أن ننطلق في المرحلة الأخيرة مسافة أربعة أميال إلى مخيمنا، وكانت جبال سيناء تلوح في الأفق غير واضحة خلفنا في الضباب الخفيف، في حين كان يمتد أمامنا خط طويل من جبل اللوز ومدين، وهكذا انتهت أوّل زيارة لي إلى مدين، وعندما يبزغ فجر الغد علينا -إن شاء الله- نكون قد قطعنا مسافةً في طريقنا هابطين إلى ساحل البحر الأحمر.

بئر هدَّاج وبعض الإبل أثناء العمل

مقابر عبدالكريم بن رُومان وقاتله

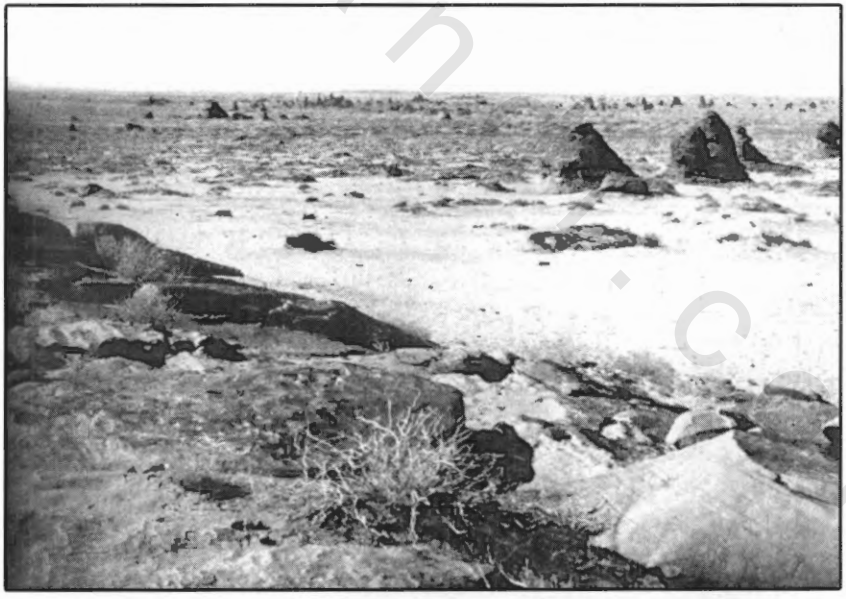

صخور منطقة الخبو الشرقي الرملية بالقرب من تيماء

صخور في وادي البياضية

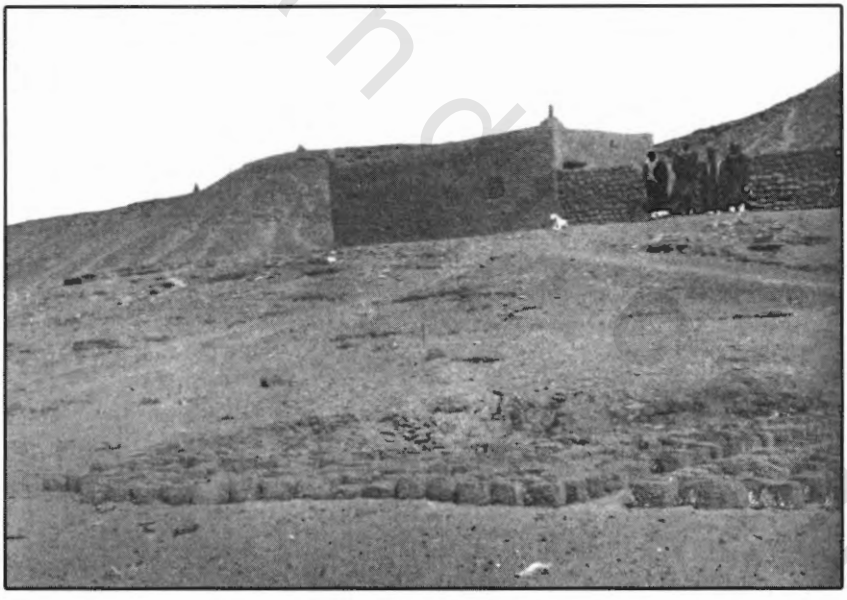

مركز القليبة الحدودي

قبور قديمة بالقرب من القليبة

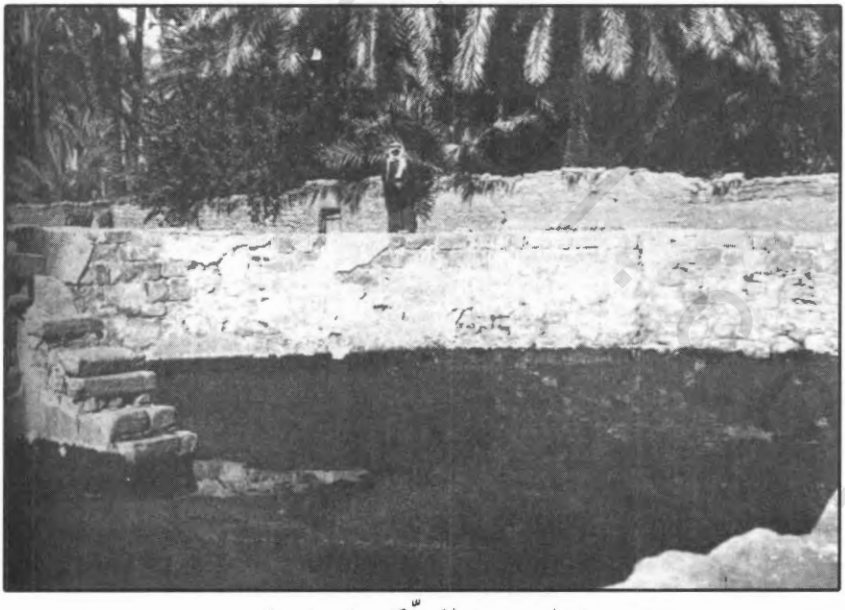

خزان عين السّكر في تبوك

obeikandl.com

471

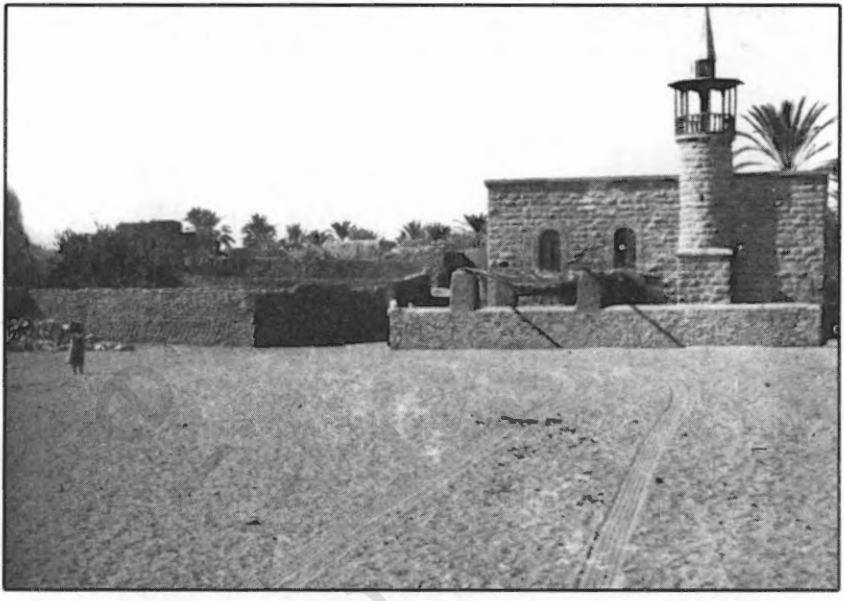

المسجد التركي في تبوك

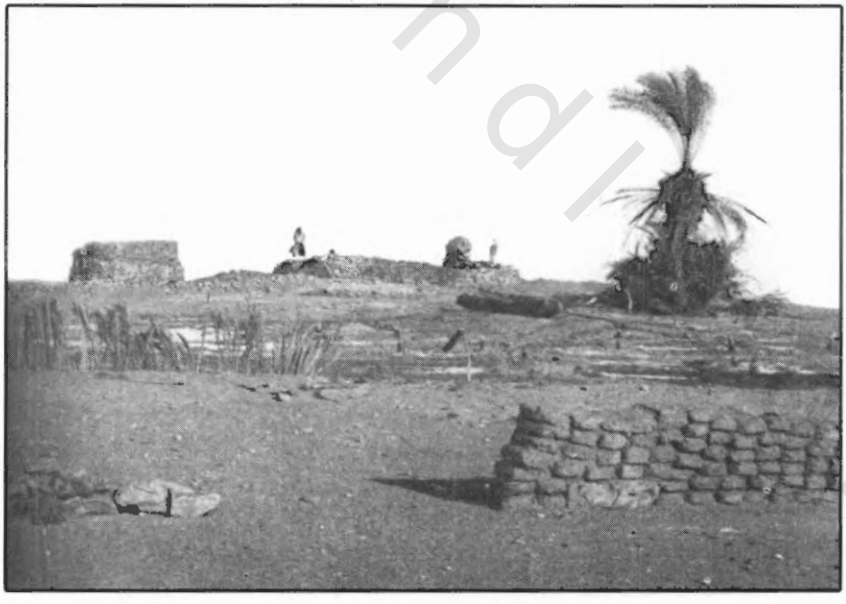

واحة الجرثومة بالقرب من تبوك

قبر في رجوم شوهر

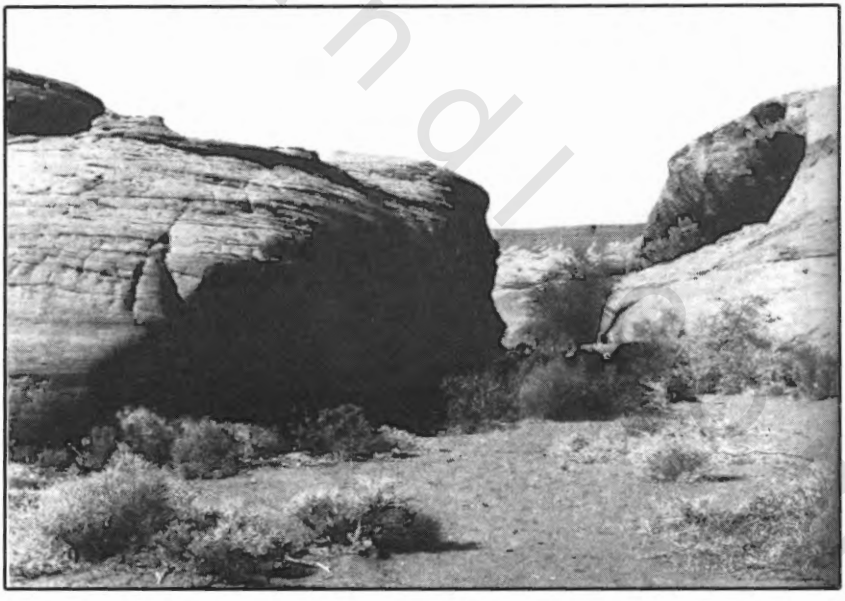

القرينان: وادي ضيق مع صخرة مقوسة من الحجر الرملي

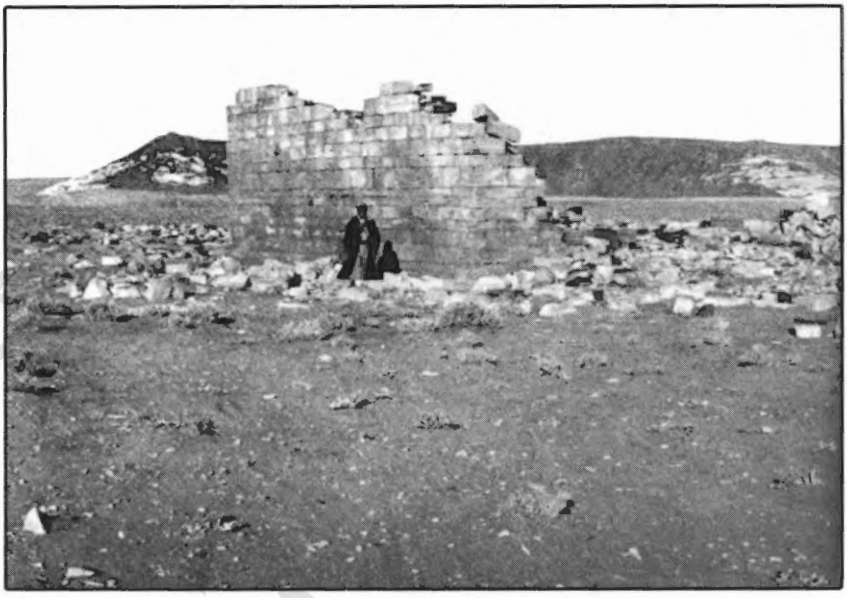

معبد روافة

خرائب القرون بالقرب من روافة

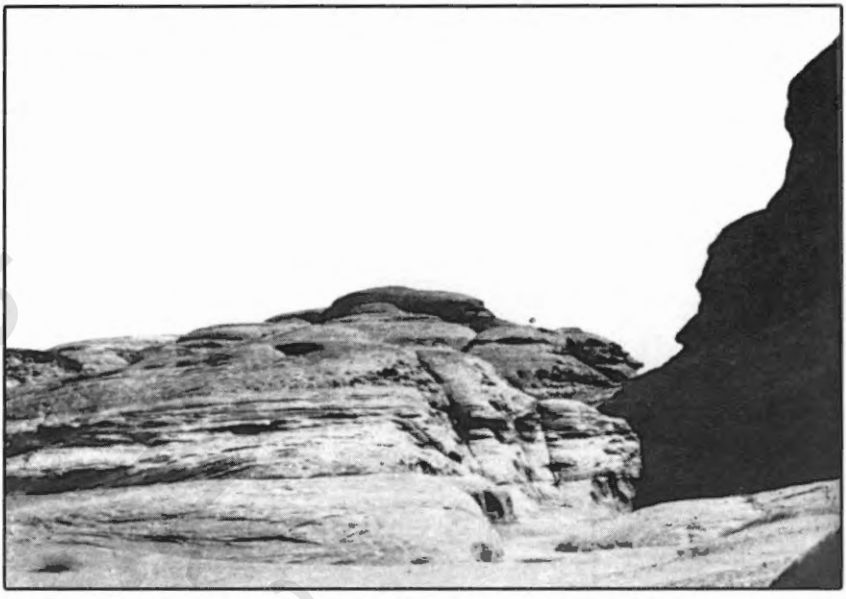

صخور الباير

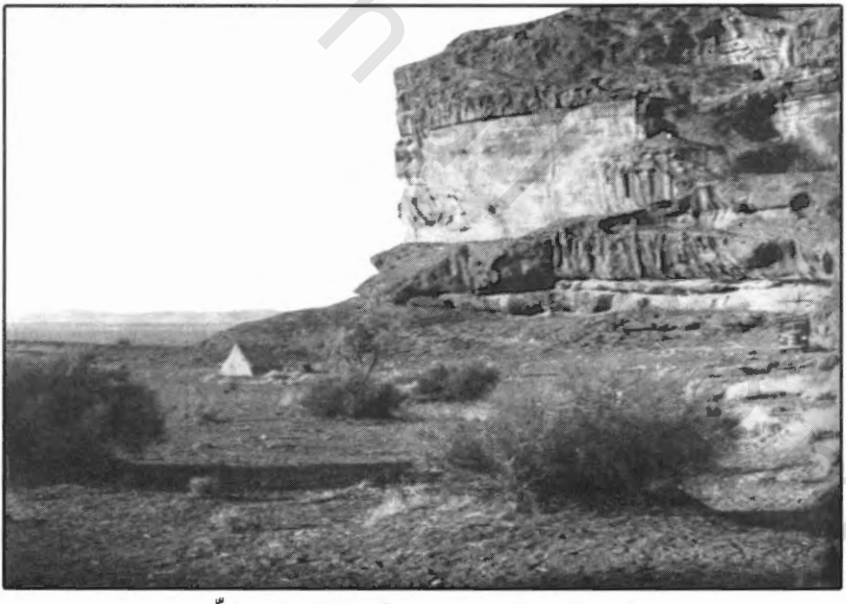

المعسكر بالقرب من أجراف العسيّة

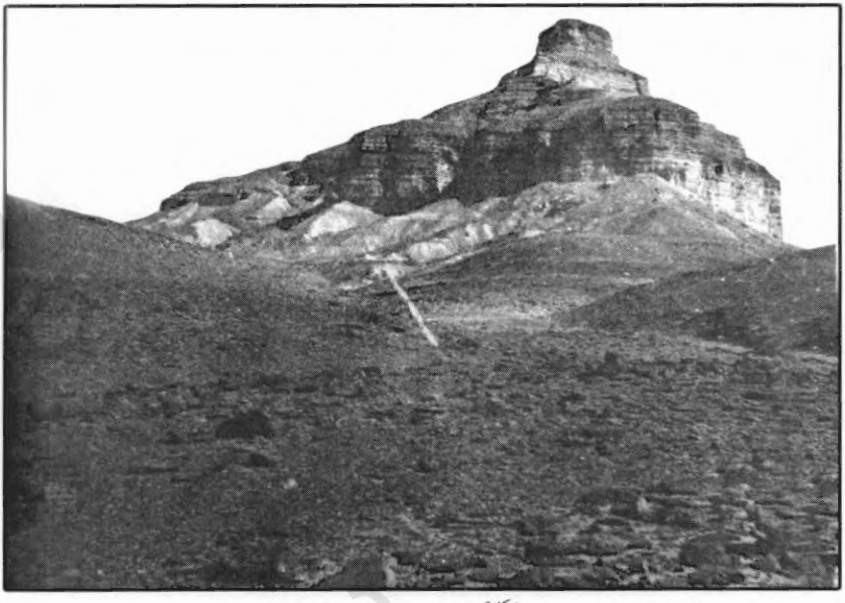

(منبر الرسول ﷺ) في سلسلة جبال شرورى

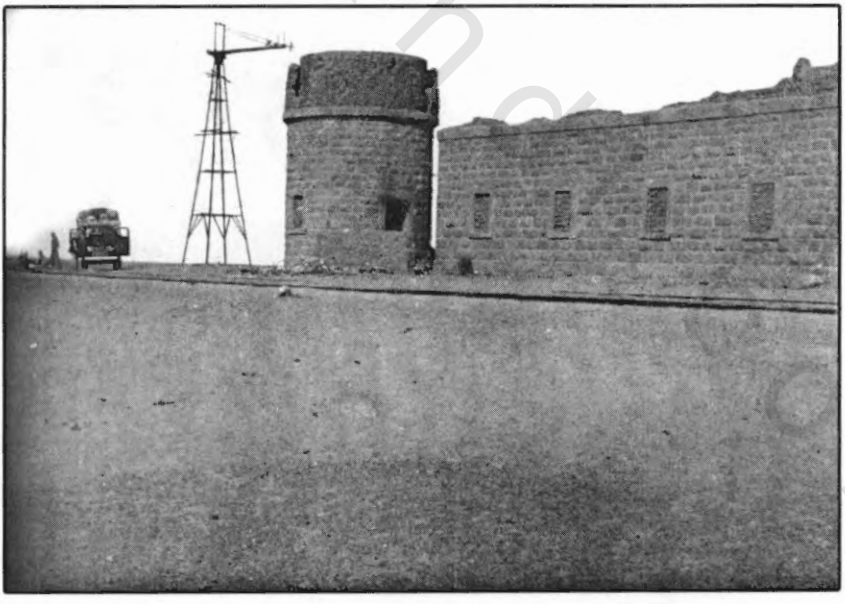

محطة بئر ابن هرماس على سكة حديد الحجاز

قريّة: آثار السور الشرقي والحورية

قريّة: جبل القلعة مع آثار الحورية في المقدمة

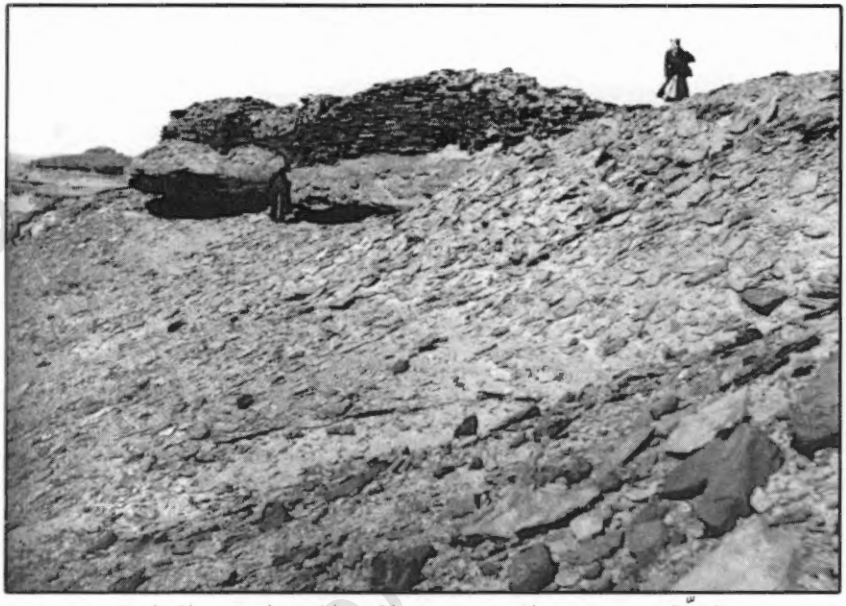

قريّة: جزء من السور وخرائب المدخل في القلعة

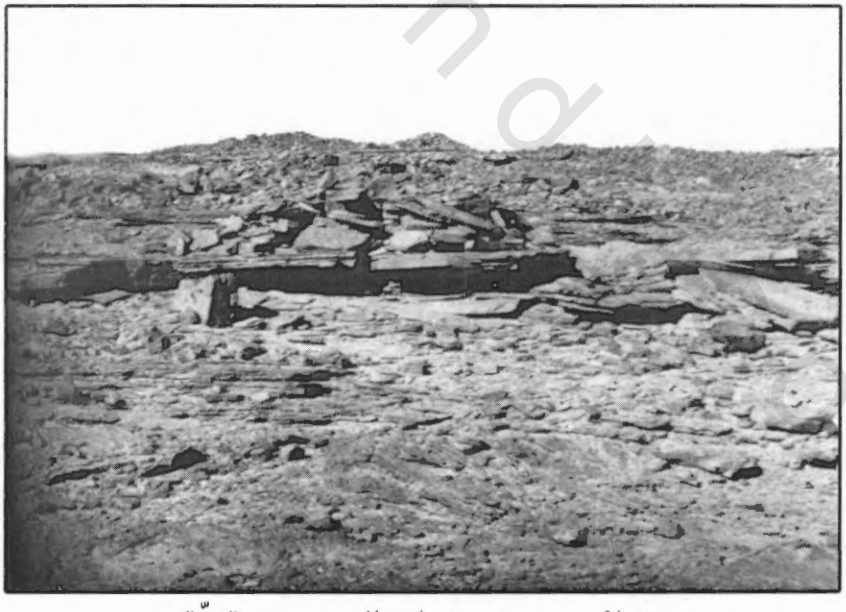

خرائب حريف ضباء بالقرب من قريّة

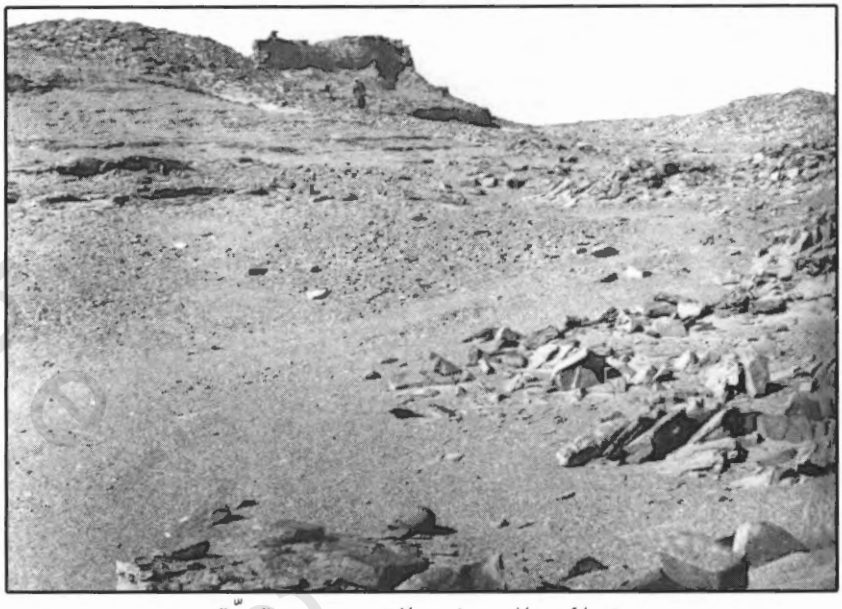

خرائب العويذر بالقرب من قريّة

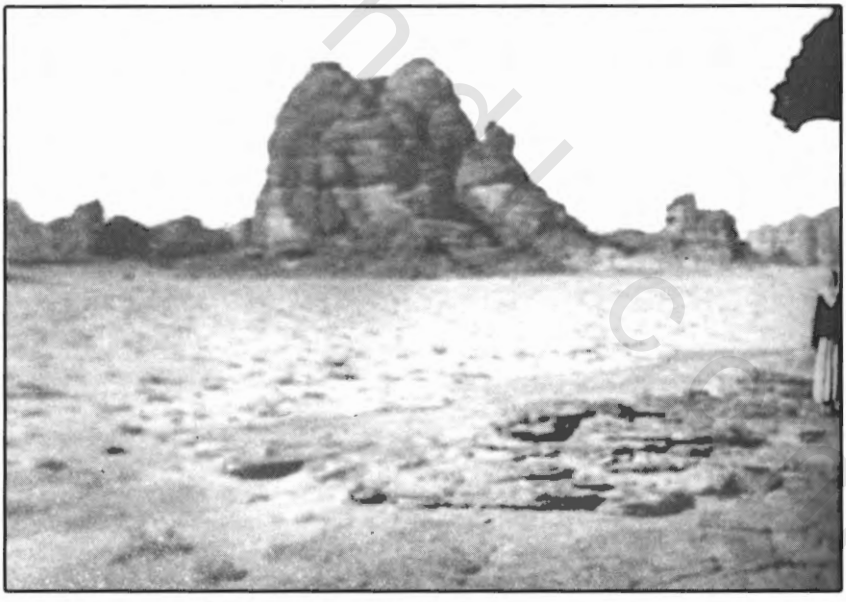

أم البيبان مع (المكان السامي)

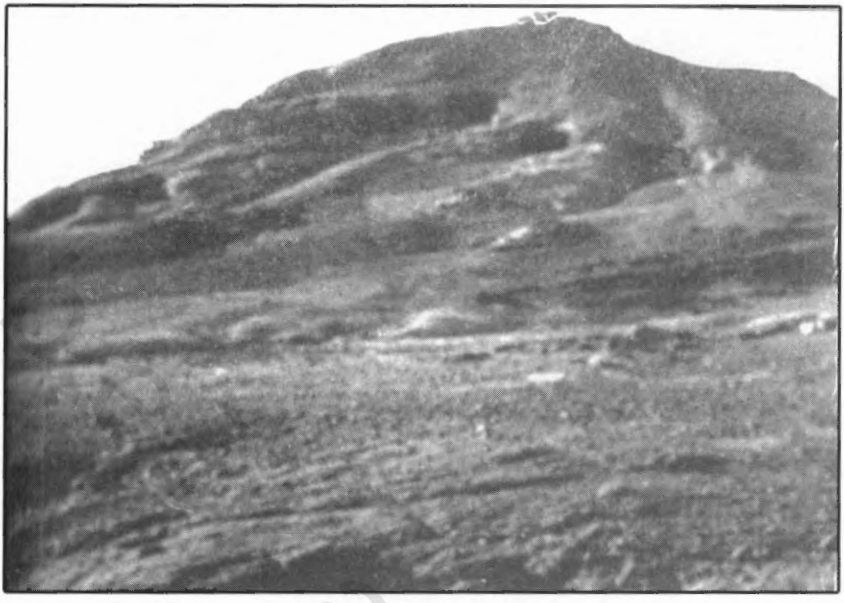

مغاير شعيب المقابر النبطية (المجموعة ب)

مغاير شعيب. المقابر النبطية (المجموعة د)

خليج الحريبة مع المركب الشراعي الصغير في الميناء

قلعة المويلح، السور الشرقي، باتجاه الشمال الشرقي

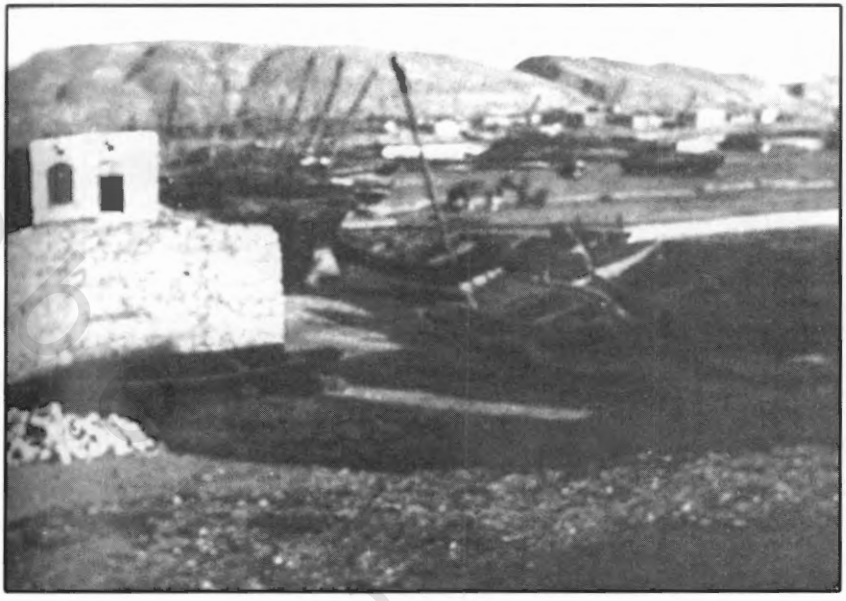

ميناء أملج

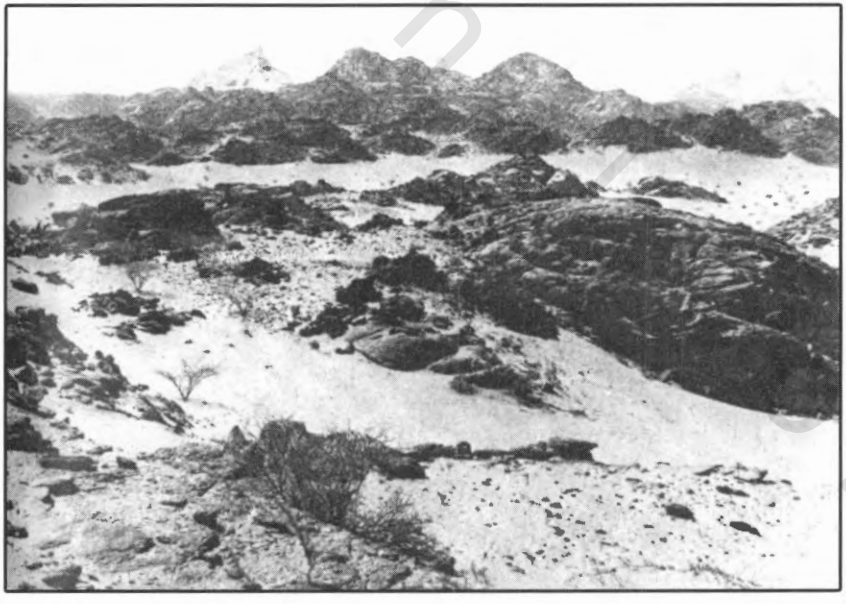

منطقة تلال التباب بالقرب من آبار نبط

ضباء: السوق مع قلعة، على الجرف

قصر الأزلم: البوابة من الداخل